اكتشاف قارة

يوسف إدريس



اكتشاف قارة

تأليف
يوسف إدريس



اكتشاف قارة

يوسف إدريس

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٥ ١٨٧٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

تقديم

ما أقل ما نَعرف عن بلاد الشرق الأقصى التي يسكنها أكثر من نصف عدد سكان العالم! إننا لا نعرف عنها إلا القليل مما تَنشُره الصحف من أخبار معاركها أو مجاعاتها، أو كوارثها الطبيعية. وفي هذا الكتاب القيم يُطوِّف بنا الكاتب في هذه البلدان، ليُحدثنا عن انطباعاته ولقاءاته مع الإنسان الآسيوي العظيم. الإنسان الذي صنَع ثورة الصين العظيمة، والذي استطاع — بعد قسوة الهزيمة في اليابان — أن يَستعيد مكانته وقوته، كما استطاع في نضاله مع الاستعمار الأمريكي في فيتنام أن يُحقِّق أروع البطولات.

هذا الإنسان الآسيوي، لماذا هو هكذا؟ ما هي طبيعته؟ ما هو طبعه؟ مَن هي المرأة فيه؟ ذلك ما يُجيب عنه الدكتور يوسف إدريس الأديب الفنان والطبيب العالم بحقائق النفس البشرية، بعد أن «اكتشَفَ» هذه القارة التي ظلَّت أحداثها الهائلة — حتى وقت قريب — لا تُثير بيننا أي اهتمام أو انفعال.

هذه «القارة» — كما يقول المؤلِّف — عالم ثانٍ إن يَكُن قد ظلَّ حبيس حدوده الجغرافية لو لم يُغرق بفتوحاته وغزواته وجه الأرض، إلا أنه لم يقلَّ عراقة عن عالمنا، إن لم يَزِد. بل إن الإنسان الآسيوي المعاصر الذي جاء نتيجة ذلك العالم يَفوق مِن أوجهٍ كثيرة إنساننا نحن.

الفصل الأول

الإنسان الآسيوي المعاصر

اكتشاف قارة

بهذه الرحلة أكون قد غطَّيتُ — تقريبًا — سطح الكرة الأرضية، وتعرَّفتُ إلى معظم أوطانها وشعوبها. والحقيقة أني بدأتها مجرَّد رحلة أخرى من الرحلات. ولكني حين انتهيتُ منها أحسست أنها فريدة، بل رحت أؤنِّب نفسي أني أجلتها إلى هذا الوقت، بينما هناك بلاد كثيرة معظمها في أوروبا رأيتها أكثر من مرة، وضيعتُ فيها أكثر من وقت.

كنت أقول لنفسي وأنا في الطائرة: حسن! ها أنا ذا في طريقي إلى الشرق في عكس اتجاه الشمس، كلما مضَتْ بنا الطائرة أمعن اليوم في مضيِّه حتى حلَّ علينا الظلام وساعتي تُشير إلى الثانية بعد الظهر بتوقيت القاهرة، ظلام سبَّب مشكلة ليست هينة لصديقنا الأستاذ يوسف السباعي؛ فهو كان قادمًا من طرابلس عقب حضور مؤتمر التضامُن الآسيوي الأفريقي هناك، وفقط غيَّرَ الطائرة في مطار القاهرة. ولكن المشكلة أنه كان صائمًا — إذ كنا في رمضان — فهل يُفطر وقد غربت الشمس الآن بينما الساعة تُشير إلى الثانية بتوقيت القاهرة، وربما الثانية عشرة أو الواحدة بتوقيت طرابلس؟ كنتُ أنا في الحقيقة غير صائم — أوَلستُ على سفر؟ — ومع هذا بدتْ لي المشكلة محيِّرة، فها هو المغرب أمامنا قد حلَّ والدنيا ظلام تام. أوَليسَ هذا ميعاد الإفطار؟ حلَّ لنا المشكلة قبطان الطائرة الذي كان واضحًا أنه متبحِّر في الدين رغم أنه كان مثلي غير صائم؛ فقد أفتى بأن على يوسف السباعي أن يُفطِر بتوقيت المدينة التي أمسك فيها عن الطعام والشراب، أي بتوقيت طرابلس. وقد بدت الفتوى أول الأمر غير معقولة؛ فقد كان على يوسف السباعي أن يفطر في تمام الحادية عشرة مساء، ولكن كان واضحًا أيضًا أنها الفتوى الوحيدة التي لها منطق يَحتفظ للصائم بساعات محدَّدة لا بدَّ أن يصومها؛ لأنه لو اتَّبع طريق الشمس لضل؛ فالشمس كانت قد اغتالت من نهار طرابلس ستَّ ساعات، وربما أكثر.

أنا في طريقي إذن لآسيا، إلى البلاد التي تُشرق فيها الشمس قبل شروقها في القاهرة بربع يوم على الأقل؛ آسيا حيث الهند المهولة ذات الخمسمائة مليون، والصين الخرافية ذات التسعمائة مليون، وباكستان واليابان ذات المائة، وتايلاند وإندونيسيا وسنغافورة وكمبوديا ولاوس ذوات المائتي مليون، ناهيك عن فيتنام وكوريا وماليزيا والفلبِّين. في طريقي إلى بلاد يسكنها أكثر من نصف عدد سكان الكرة الأرضية، ومع هذا ما أقل ما نعرفه عنها! إننا لا نَعرف عنها إلا ما تنشره الصحف من أخبار معاركها أو مجاعاتها أو كوارثها الطبيعية.

الهند ليست في نظرنا سوى غاندي ونهرو وأنديرا وبضعة أفلام هندية رأيناها.

اليابان ليست سوى ضحية أول قنبلتين ذريتين والراديوهات الترانزستور والبضائع التي تُغرق السوق، وبالنسبة لي — على الأقل — قصيدة حفظناها في الثانوي لشاعر النيل حافظ إبراهيم عن غادة يابانية «صفراء، ذات صفرة تُنسي اليهود الذهبَ»، عَشقَها — في القصيدة طبعًا — وصارت تحدثه عن وطنها وضرورة خدمته.

في طريقي إذن لآسيا، نصف الرحلة لحضور مؤتمر الكُتَّاب الآسيويين الأفريقيِّين، ونصفها الأقصى موفدًا لتغطية المنطقة ثقافيًّا وفنيًّا وحضاريًّا.

ولكن الحقيقة أني — بيني وبين نفسي — كان لي هدف آخر. كان هدفي الأول أن ألتقي وجهًا لوجه بهذا الإنسان الآسيوي، الإنسان الذي صنع المسير الطويل وثورة الصين العظيمة، الذي يخوض بنجاح تجربة الاشتراكية الديمقراطية في الهند، الذي بعد قسوة الهزيمة في اليابان سمقَ وانتصَر، وأصبحَت به ثالث دولة في العالم بعد أمريكا وروسيا، والذي يتبدَّى لنا الآن — وعلى مسمع ومرأى من العالم أجمع — كنهُ هذا الكم من البطولة الذي يحتويه وهو يُناضِل الاستعمار الأمريكي في فيتنام.

لماذا هو هكذا هذا الإنسان؟

ما هي طبيعته؟

ما هو طبعه؟

مَن هي المرأة فيه وكيف؟

مِن أين جاءته هذه الطاقات الروحية الخارقة حتى ليُحوِّل الهزيمة إلى انتصار، وحتى ليُرسي الرعب — مهما كان قليل العدد — في قلب دولة كبرى كأمريكا نفسها؟ ذلك كان هدفي الحقيقي، كنتُ متأكِّدًا أني حتمًا سأعثُر على الجواب.

رحلة لقلب إنسان

كنتُ متأكِّدًا أنها ليست فقط رحلة عبر المكان ولكنها أولًا رحلة لقلب إنسان، فَرُوح إنسان. كنتُ متأكدًا أني سأُفاجأ وأذهل، أني سأتعلَّم، أني سيَحدُث لي تحوُّل روحي هائل، وأني حتمًا سأتغيَّر.

وأيضًا — وهذا هو المُهم — كان الهدف من أجل مصر. كان الهادف مِن أجلنا نحن، وما من مرة خرجْتُ فيها من مصر إلا وكان الهدف مصر، وما من مرة سعيت لرؤية شعب آخر إلا وكان الهدف شعبي، وبالذات الآن، وبالذات حين تَصير حركتُنا إلى مأزق.

والحق أنَّ إنساننا في مأزق. التاريخ قادنا إلى مأزق، وأحيانًا تُغيِّم الدنيا ولا تتبدَّى بارقة أمل. أحيانًا يبدو كما لو كان حكم التاريخ لا يَقبل النقض، وكأنما حلَّت اللعنة.

أقول أحيانًا لأني أرى — ودائمًا أرى — وراء كل الظلام المحيط شعاعات النور، ووراء اليأس المُطبِق أملًا. وراء الحناجر الضاحكة في سُخرية عصبية استعدادًا قاهرًا مهولًا ليوم نَضحك فيه بحقٍّ وعن حق، ليوم نَنتصِر، ليومٍ نستعيد فيه تمامًا الثقة بالنفس، والقدرة وفاعلية العمل، ليوم نعود نُلقِّن فيه العالم درسنا الأول؛ أننا أصل الحضارة، وأننا بعدُ لا زلنا الأرقى والأشجع والأكفأ.

وفي مثل هذه المآزق التي يضعنا فيها التاريخ يُستحسَن أن ننفتح على العالم كي نطفو ونَنجو، نَنفتِح لكي نرى غيرنا ويَرانا الغير، ننفتح لكي نتعلَّم، وما أروع أن نتعلم من أرقى مثل! وفي طوافي ببلاد الناس لم أجد خيرًا من الإنسان الآسيوي زميلًا في المآزق، نتطلع إليه ونقترب منه ونتعلم.

أنا إذن في طريقي إلى الإنسان الآسيوي.

ورغم هذا لم أكن أتصوَّر أنه إنسان مختلف عنا إلى هذه الدرجة، طبعًا توقَّعتُ أن يكون مختلفًا، ولكني لم أتوقَّع أن يصل الاختلاف إلى درجة أنه يكاد يكون نوعًا آخر من البشر.

وهو ليس كاملًا أبدًا كما أردتُه، ولكن ليس فيه أيضًا ما توقَّعتُ من نقائص.

أين يَكمُن الاختلاف؟ وأيضًا أين يَكمُن التشابه؟ لا أعرف ولكني سأُحاول، دون ترتيب، أن أضع على الورق بعض انطباعاتي. إنَّ انطباعي السريع الأول أن الإنسان في آسيا ليس غريبًا من الناحية الشكلية البحتَة عنَّا في مصر. في الهند مثلًا وفي تايلاند وفي الفليبين وحتى في طوكيو كنتُ أرى دائمًا وجوهًا مصرية، أو لا بد في رأيي أن تكون مصرية، أو وهذا هو الأصح نحن قطعًا — وبالذات وجهنا البحري — آسيويون مائة في المائة.



حسناء صينية.

إنَّ المغول والتتر والآسيويين تركوا بصماتهم الشكلية في نَسلِنا هنا، حتَّى إني وأنا أسير في القاهرة الآن لا أستطيع أن أمنع نفسي عن رؤية أشكال الناس، وبالذات البنات والسيدات لأردهنَّ إلى أصلهنَّ الحقيقي في القوقاز والتركمانستان والتازاكستان وكشمير والبنجاب وسيام وجزر اليابان.

لقد أدركتُ أنَّ الملامح التي نُسميها مصرية أو عربية ليست كذلك في الحقيقة؛ فحقيقة أمرها أنها آسيوية جاءت من الصين، وبالذات من أواسط آسيا.

ولكن العيون مختلفة، ألا ما أجملها من عيون! لقد حزَّ في نفسي أنَّ بعض اليابانيات يَلجأنَ لجرَّاح العيون لمد فتحتها لتُصبح كالعيون الغربية أو الأوربية، في حين أن جزءًا لا يتجزأ من جمال تلك العيون هو ذلك الحيز الجلدي الذي يَفصلها عن الأنف، والذي تتميز به معظم العيون الآسيوية.

لها إذن — تلك القارة — طريقتها الخاصة في الجمال، ولها أيضًا قيمتها الخاصة. والتشابُه الخارجي بين إنسان الشرق الأوسط وإنسان الشرق الحقيقي الأقصى قائم وموجود، ولكن ما أذهلني وحيَّرني أنني وجدت نفسي لأول مرة في عالم ثانٍ غريب كأنه الوجه الآخر لكرتنا الأرضية.

عالَمنا ليس واحدًا

لأول مرة أحس أن عالَمنا هذا ليس واحدًا كما كنت أعتقد، ولكنه عالَمان؛ ذلك الذي بدأ بالحضارة المصرية القديمة التي انتقلت إلى اليونان ثم الرومان ثم العرب ثم أوروبا من جديد، لتبدأ الحضارة الأوربية التي انتقلت إلى قارتَي أمريكا وانتشرت في مناطق شاسعة من آسيا وأفريقيا.

عالَمنا هذا بأديانه التي بدأت بتوحيد أخناتون، ثم الدين اليهودي والذي منه وُلدت المسيحية، ثم الإسلام، بعلومه وفلسفته وطريقة نَظره إلى الأشياء والوجود.

عالَمنا هذا الذي قد تختلف درجة تحضُّر أجزائه، أو تتبادل مشاعل التحضر والنور، ولكنه واحد يكاد يكون كاملًا متكاملًا، تاريخه واحد، وإنسانه واحد.

عالم نتصور أنه كل العالم بينما الأمر ليس هكذا أبدًا؛ فهناك في شرق آسيا وجنوبها وقلبها عالم آخر تكاد لا تَربطه صلة أي صلة بعالَمنا، عالم موازٍ نشأت الحضارة فيه بطريقة مختلفة. وتكوَّن تاريخه من أحداث مُختلِفة، وانبثقَت فيه الديانات والعقائد بطريقة خاصة به وحده.

عالم ثانٍ إن يكن أقصر من عالَمنا عمرًا، إن يكن أقلَّ اتساعًا وانتشارًا، إن يكن قد ظلَّ حبيس حدوده الجغرافية لم يُغرق بفتوحاته وغزواته وجه الأرض أو كان سيد الدنيا يومًا، إلا أنه لا يقلُّ عراقة عن عالمنا إن لم يَزِد. بل إني لأجرؤ وأقول إنَّ الإنسان الآسيوي المعاصر الذي جاء نتيجة ذلك العالم، هذا الإنسان، هذه الشعوب المكوَّنة منه، يفوق وتفوق من أوجه كثيرة إنساننا نحن وشعوبنا نحن، بل إني لأصرِّح بما في نفسي وأقول: نحن على شفا عصر ستكون فيه السيادة لهذا الإنسان، عصر تنقلب فيه الآية، ويُكتَب لعالم ظلَّ طويلًا حبيس البُعد والعزلة أن يتلقَّف هو مشعل الحضارة والتقدم، وأن يتحوَّل عالَمُنا نحن إلى عالم تابع، على الآخر يتتلمَذ.

عصر الإنسان الأصفر

نحن إذن على أبواب عصر آسيا، عصر الإنسان الذي سمَّيناه الأصفر، وعِشنا لا تُثير فينا أية أحداث هائلة تقع فيه إلا أوهى الانفعالات والاهتمام، وكأنَّ ما يَحدث يحدث في كوكب آخر.

بل إننا لَمُضطرون أن نفهم الفهم الصحيح، ونُدرك الإدراك الحق، أن مُستقبَل الإنسان في عالمنا نفسه يتقرَّر هنا.

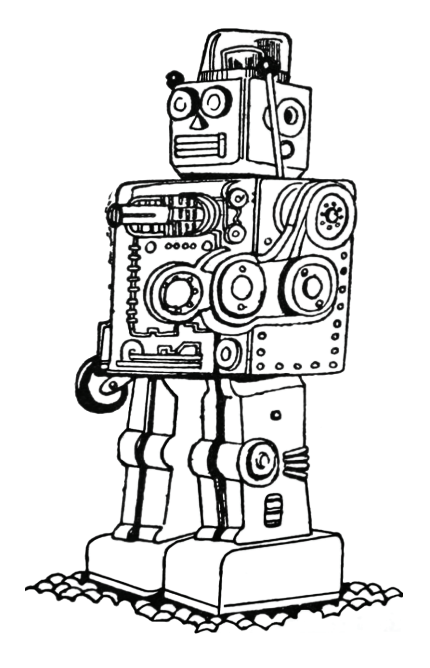
إن مصير أمريكا هنا، الحضارة الأوربية أيضًا مآلها سيتحدَّد هنا، الرأسمالية نفسها، بل حتى الماركسية، وشكل ونتيجة ونهاية الصراع بينهما أمور أبدًا لن تتحدَّد إلا هنا، بل حتى قضية كقضية فلسطين ووجود كالوجود الإسرائيلي إذا كان اليوم أمره مرهونًا بإرادة أمريكا وما بينها وبين الاتحاد السوفيتي من صراع حوله، وإذا كان الشد والجذب بيننا وبين إسرائيل هنا، فإن الحل النهائي للقضية أيضًا هناك في آسيا.

ليس مجرد حماس لمنطقة أنا حديث القدوم منها، ولا من قبيل التهويل ما أقول. لقد كانت نهاية الحضارة الأوربية على يدِ آخر نظرية، آخر ثمرة فلسفية من ثمار تلك الحضارة (الماركسية)، بوجودها، بقيام أول ثورة شيوعية، بانقسام أوروبا إلى معسكرَين؛ إلى اشتراكية ورأسمالية تُعادي إحداهما الأخرى أبشع عداء، بانتهاء الجولة الأخيرة بالحرب العالمية الثانية انتهت الحضارة الأوربية وتجمَّدت؛ إذ بدلًا من المضي قدمًا انقسمت إلى قسمين همُّ كلٍّ منهما أن يُجمِّد وضع الآخر وأن يمنعه عن الحركة، النتيجة الحتمية — والتوازن قائم — أن يتوقَّف الإنسان كعربتَين متساويتي القوة تُحاول كلٌّ منهما أن تزحزح الأولى، فلا يتحرَّك أي منهما خطوة.

حضارة مضحكة!

توقفَت حضارة أوروبا لتبدأ حضارة أمريكا. ليست حضارة فلسفات هذه المرة أو مبادئ أو عقائد أو أديان، ليست ثورة على حضارة أوروبا حتمًا، إنما هي في الحقيقة أغرب حضارة في التاريخ؛ فهي حضارة تقوم لأول مرة لا لتسير مع التاريخ وتسبقه، وإنما حضارة تقوم لتقف في وجه التاريخ، لتُوقفه، لتُعادي التقدم.

حضارة تكاد تكون مضحكة؛ فحلفاؤها ليسوا دعاة المستقبل وبراعم التطوُّر، جنودها وقواتها هم أي قوًى تُريد أن تحلم بإرجاع التاريخ إلى الوراء، حلفاؤها الرجعية في كل شيء وفي كل ميدان؛ في الاقتصاد، في الدين، في الخلق، في الفن، في كافة أوجه الحياة.



إنسان آلي.

حضارة هذه رسالتها، أما وسيلتُها فهي التكنولوجيا، أو بالضبط علم أوروبا مسخرًا لا لمصلحة البشرية وإنما لمصلحة قوى الاستغلال. تكنولوجيا هدفها إحلال الآلة المطيعة الصمَّاء مكان الإنسان؛ إذ هو له شرف يُصرُّ على المحافظة عليه؛ وبوسعه أن يَستشعِر الظلم ويحاربه، وأيضًا له قيم ومبادئ، وبطبعه مُتمرِّد.

تكنولوجيا أمريكا هدفها خلق جيش آلي منظَّم ودقيق ومطيع يعمل ضد الحياة وضد الإنسان، جيش هائل الضخامة باستطاعة عصابة الرأسمالية القليلة العدد أن تُسيِّره لإبادة البشر إذا أرادت، لإذلال الإنسان وقتما تُريد.

وهكذا فإن جيش الآلات هذا هو الذي أصبح يتجسَّس، وهو الذي يُحدد لجيش آلات آخر أن يَضرب ويُدمِّر ويُخرِّب، وبالتكنولوجيا فإن أمريكا تريد إخضاع الإنسان للطبيعة، وإخضاع الطبيعة للآلات، وإخضاع الآلات للتكنولوجيا، وإخضاع التكنولوجيا لأصحاب جنرال إليكتريك والبنتاجون!

هكذا انبثقت حضارة أمريكا الجديدة.

أما أوروبا فبعد اعتزالها كرسي العرش تحوَّلت إلى مزرعة لتربية العلماء والمتخصِّصين الذين يشتريهم بعد هذا — كما كان يشتري المماليك والعبيد — سادة أمريكا، وبهم — بالذكاء والعلم البشري — يمتصُّ من أوروبا وأفلاك أوروبا وتوابعها، يجمع، ويُجنِّد، ويُركِّز لاستغلاله وضمان السيطرة عليه واستقطار كل ذرة قُدرة على الخلق والتفكير والإبداع لديه، نظام عبقري الذكاء بحيث يَضمن سادة أمريكا في قبضتهم جيشًا من العلماء بمثابة مصنع التكنولوجيا الثقيل؛ إذ بواسطته تنتج الآلات، وبواسطته تتطوَّر ليتحقَّق شيئًا فشيئًا ذلك الحلم الدموي الذي يُراود سادة أمريكا؛ حلم أن يَملكوا العالم ويحكموه بعلمٍ مُجرمٍ سفَّاح لا يُكلِّف إدارته وتسييره إلا مجرد ضغطة على زرٍّ بأصبع. الحلم الدموي بأن تزول مِن على الأرض أسطورة الحياة التي لا بد أن تَمضي إلى الأمام، والتاريخ الذي لا بدَّ أن يتحرَّك في اتجاه إنسانية الإنسان.

ولتستخدم هذه الحضارة أذكى ما تُفرزه عقول البشرية لإلغاء دور البشر، ليكون الإلكترون هو السيد، والكمبيوتر الحاسب هو القائد، وليخضع هذا كله لإرادة قبضة القياصرة الجدد.

ولنتجاوز عن كثير من التفاصيل، ولنقل إنَّ هذا الحلم الدموي، وهذه الحضارة ضد الحضارة، وهذا العلم ضد العلم، قد أمكن في غفلة من الزمن — في مواجهة التخلُّف والفقر وضعف القدرات — أن يَنجح، وأن يبسط نفوذه على ذلك الحيز من الكرة الأرضية الذي نُسمِّيه عالَمنا، والذي إذا كانت مصر أول منبع لحضاراته فإن أمريكا آخر صيحة في رواية تمدُّنه.

عالم إذا كان بنو إسرائيل قد شهدوا طرفًا من بداية قصته مقهورين أذلاء لاجئين كالمُستجير من الرمضاء بالنار إلى صحراء سيناء، فإنه اليوم يشهدهم، ويا للمرارة! غزاة جبارين يَدفعوننا نحن أن نكون المدحورين اللاجئين. إنه ليَشهدهم، لا يقودهم موسى النبي في طريقهم إلى الله، وإنما قائدهم موسى الفاشي ديان في طريقهم إلى إله مِن واشنطن يسكن البيت الأبيض، ووصاياه لهم ليست عشرًا إنما واحدة. إذا كان هدف أمريكا أن تحكم العالم، فليكن هدفنا نحن أن نحكم أمريكا ليكون لنا الاثنان معًا؛ أمريكا والعالم.

وإذا كانت حضارة أمريكا تنقصها الرسالة الخلقية، فلنكن نحن مُكمِّلي النقص ورسالة الأخلاق، ليكن الهدف أمامنا عالَمًا تحكمُه أمريكا بالتكنولوجيا والقوة الغاشمة. عالمًا حديديًّا أصم نكون نحن فيه بمثابة الروح، نحن من نُفكِّر له، نحن ننتج فنه وأدبه

وقيمه، نحن نُحدِّد له الخطأ والصواب. ليكن عالَمًا، إسرائيل فيه هي الكعبة، والصهيونية هي البابا، ليُعيد كهنة اليهود الجدد منبع الحكمة، ولترتدَّ الديانة إلى العهد القديم، فلقد آن الأوان أن نضع حضارةَ أوروبا المسيحية بين قوسَين، وأن نبدأ حضارة أمريكا بصلب المسيحية كلها هذه المرة، بإعادة المسيحيِّين شيئًا فشيئًا وبأحدِّ ذكاءٍ وأنعم وسيلة إلى حظيرة المعبَد الذي أخرجهُم منه المسيح.

لتَعُدِ اليهودية الجديدة (الصهيونيةَ) دينَ العالم الجديد كما كانت دين العالم القديم، وليَعُد الإسرائيليون شعب الله المختار. ليَنتصِب المارد شامخًا مرعبًا مخيفًا يملك كل شيء ويَحتكِر كل شيء، ماردٌ جسده آلي أصم من أمريكا، وروحه محضَّرة مُستحضَرَة مزيفة ببراعة ومُعدَّة في الوكر الصهيوني رهيب.

الصورة مؤسِفة لا شكَّ في هذا، ولكنَّها الحقيقة الواقعة. أمريكا واقعة في براثن الصهيونية، والعالم بالخديعة والطعن والرشوة والحرب والإفساد قد سقَط في براثن أمريكا، العالم عالَمنا نحن؛ فالعالم الآخر له قصة أخرى.

لكل حضارة هفوة

وكما أن لكل عالم هفوة، فلكل حضارة أيضًا — حتى لو كانت حضارة ما ضدَّ الحضارة، حتى لو كانت تملك أدق آلات الحساب والاحتمال — هفوة. الفرق أن هفوة العالِم سهلٌ تداركها، أما هفوة الحضارة فإنها لا تجيء صدفة أو بناءً على خطأ. إنما تجيء لأنها كان محتمًا أن تجيء؛ لأنها قدرها، إذ منها وبواسطتها تلقى نفس الحضارة مصرعها.

وخطأ الحضارة الأمريكية — حضارة ما ضدَّ الحضارة — أنها قرَّرت، وما دامت قد نجحَت في غزو عالَمنا بأكمله، وتمَّ لها السيطرة بنجاح أن تغزو ذلك العالم الآخر دون أن يُخالجها ذرة شك أن النجاح أيضًا سيكون حليفَها. ما دام الناس هم الناس، والإنسان هو الإنسان، ما دام هذا الإنسان من طبعه أن يَخاف القوة، وأن يدفعه الخوف إذا تزايد، أن يَخضع لها.

فماذا هنالك ليَمنع أن تستعمل أمريكا قوتها لتحلَّ محلَّ كل قوى الأباطرة والمهراجات والداي لامات، وبمثْل ما كانوا يُسيطرون، بل وبأضعاف أضعاف قوتهم تُسيطِر!

ولدهشة أمريكا جاء النجاح الأول ساحقًا وبأسرع مما كان يتوقَّعه أحد؛ بضغطتَين على زرين سقطت قنبلتان ذريتان على هيروشيما ونجازاكي، وفي ساعات استسلمَت إمبراطورية

الشمس المُشرِقة، وسقط حصن آسيا الشرقي الحصين، وأصبحَت اليابان مُستعمَرة أمريكية تمَّ احتلالها ربما لأول مرة في التاريخ.



قنبلة هيروشيما.

لا لغز في آسيا إذن، ولا عمالقة صفر، كل ما في الأمر أنَّنا نحن الغربيِّين صنَعنا الأسطورة ونحن صدَّقناها.

ولكن الأمور بدأت تَستعصِي على الفهم.

بضغطة على زرٍّ أيضًا، وبعد بضع سنوات، اتخذت هيئة الأمم قرارًا بالتدخل في كوريا. كانت هيئة أمم أمريكية في ذلك الوقت، ومَن يدري؟ ربما إلى وقتنا هذا. وتحدَّد للتدخل — قياسًا على ما سبق — أيامٌ معدودات تَنتهي فيها أمريكا من كوريا بشمالها وجنوبها، وتَقضِم إبهام آسيا البارز من جسدها الهائل والقابع بين بحر اليابان وبحر الصين.

وبدلًا من النجاح هذه المرَّة، أخذت أمريكا «علقة» جمَّدت الدم في عروقها، وأرسَت الرعب في قلب جنرالها ماك آرثر. ومن خلال آهات التأوُّه والألم بدأت أمريكا تصرخ: الصين!

«العلقة» جاءت من الصين، فليس معقولًا أن يستطيع جزءٌ من شبه جزيرة صغيرة ككوريا أن يُسقط عملاقًا هائلًا مثلها على الأرض يتلوَّى من الألم وحده! إنها الصين، وما أغرب هذه الحضارة الأمريكية! إنها الحضارة الوحيدة القادرة على تصديق أكاذيبها. تمامًا بمثل ما ينتهي الأمر بشركاتها إلى تصديق مبالغات الدعاية عن منتجاتها. صدَّقَت أمريكا أن العلقة كانت من الصين ولا دخل للكوريين بها، وقرَّرت أن تتدخَّل هذه المرة في فيتنام؛ ولأن الصين هذه المرة لن تستطيع الوصول، فهذه فرصتها لتعويض هزيمة كوريا ولتلقين الآسيويين الصُّفر درسًا لن ينسوه، درسَ أنهم يَحيون في عصر أمريكا، عصر قوتها الأعظم، عصر لا يُمكن أن يقف أمام إرادتها أحد.

ولكن المضحك أن أمريكا هي التي أخذت الدرس هذه المرة، درسًا قاسيًا رهيبًا. ليس مجرد «علقة» باستطاعتها أن تعزوها إلى قوة كبرى كالصين، ولكنها فضيحة جعلت أمريكا تبدو أمام العالم وكأنها — كما قال ماو تسي تونج — نمر من ورق. كارثة. وحْلٌ عميق يغوص فيه العملاق الأبيض الذي قوامه مليون جندي مسلَّحون بأحدث وأخبث ما تفتَّقَت عنه عقول العلماء المماليك.

حتى وإن كان صراخ أمريكا يملأ الأرض بقولها إنَّ المساعدات تأتي إلى الفيتكونج من الشمال، حتى لو صحَّ هذا فإن فيتنام بشمالها وجنوبها لا تتعدَّى التسعة والعشرين مليونًا من البشر، وبشمالها وجنوبها تحيا على الكفاف، ولا تصل ثروتها القومية كلها إلى ميزانية شركة متوسطة واحدة من آلاف الشركات الأمريكية.

في فيتنام إذن سرٌّ ما، في ذلك الجزء الصغير من العالم الآخر تحطم وتهاوى كل ما اغتصبته أمريكا من أمجاد وانتصارات في عالَمنا نحن.

في فيتنام إذن، بدأ العالم، بل حتى أمريكا نفسها بدأت تتبيَّن أنها لا تواجه هنا مجرد شعب يدافع عن استقلاله وبلاده، بل هي حتى لا تُواجِه أصحاب مبادئ وعقائد، لا تواجه مجرد حزب شيوعي أو جبهة وطنية، ولكنها تواجه قبل هذا وذاك نوعًا آخر من البشر، بشر صَنَعوا على مدى التاريخ بفقرهم وفقر أرضهم، بأساطيرهم وحكاياتهم، بدياناتهم وإيمانهم، بطبيعتهم البخيلة القاسية، صَنعوا من هذا كله حضارة. الفلاح الفيتنامي الواقف يَنحني يَزرع الأرز ويحصدُه، ويَعتدل ليَسقُط ببندقيته الفانتوم، هذا الفلاح ليس سوى ابنٍ مُخلِص، ونتيجة لحضارة هذا العالم الآخر. يا له من عالم آخر! ويا لها من حضارة! ويا له من خطأ ارتكبتْه أمريكا وهي تَزرع سماوات هذه البلاد بأقمار تَجسُّسها

وطائراتها الأوتوماتيكية، حين لم تَفطِن إلى أن آيات الفقر الشديد وحياة الكفاف التي تَتناثر على ضفاف الأنهار وأعماق الغابات هي لشعوب فقيرة.

هذا صحيح.

ولكنها شعوب ذات حضارة، وحضارة من نوع واحد أيضًا، وإلى ألف سبب وسبب تُرجع أمريكا هزيمتها في فيتنام، ولكن أحدًا من عباقرتها المفكرين لم يَخطر له السبب الوحيد لهزيمتهم وانتصار فيتنام؛ فالسبب أنهم يواجهون في الحقيقة حضارة أرقى، ولأنها الأرقى فهي الأقوى، وهي التي سيُكتَب لها النصر. المعركة في فيتنام وغيرها معركة حضارية، ولا علاقة بين الحضارة والثياب التي ترتديها؛ فإن تكن الأمريكية ترتدي أفخر الثياب، والآسيوية أحقرها، فليس معنى هذا أن الحضارة الأمريكية هي الأرقى؛ فالإنسان الفيتنامي هو الأقوى؛ لأنه الأكثر تحضُّرًا، ولأن حضارته من نوع غريب لم تَعرِفه أمريكا ولا عرَفَه عالَمنا، حضارة جديدة؛ لأنها قديمة جدًّا، وخطيرة؛ لأنها عريقة تأصَّلَت جذورها في الإنسان من قديم الزمان.

الفصل الثاني

صدام بين الزاهدين والجشعين

كيف يختار الإنسان حضارته؟

حيَّرَتْني المشكلة طويلًا، فمِن المؤكَّد أن الإنسان هو الذي يصنع الحضارة، لتعود وتصنعه حضارته. المشكلة عندي — وأنا واقف أمام أحد المعابد الهندوكية، أتأمَّل مبناه وتماثيل آلهته، والناس المتردِّدين — كانت هي كيف ولماذا يختار الإنسان حضارته. لأي سبب يُفضِّل نوعًا من الحضارة على نوع آخر؟ وما دافِعُه ليُفضِّل؟ أهو يَختارها لتُكمل نقصه؟ أيختارها لتُطلق كوامن طاقاته وكفاءاته؟ أم يَختارها لتقودَه في الطريق الذي يُصبِح فيه أكثر إنسانية وأكثر استحقاقًا للقب الإنسان؟

والحق أنَّ الحل الأمثل لهذه المشكلة ليس في استطاعتي، أو حتى في استطاعة مَن هم أكثر مني عِلمًا ودراسة لعلم الإنسان.

إنَّ معظم آسيا بلاد زراعية، مثلها مثل بلادنا هنا. هناك أيضًا أنهار وقمح وأرز وقطن، نفس التجمُّع الذي حدث على ضفتَي النيل حدث هناك، فلماذا اختلف الإنسانان؟

الجنس البشري واحد، ما في ذلك شك، ولكنه سلالات، وأجواء، وأنواع عديدة من التكوينات النفسية والأمزجة. وكل مجموعة بشرية تُولَد تحمل في ثناياها وجهة نظر مسبقة إلى العالم، وموروثة منها تستقي الدوافع ثم تُخرجها فلسفة ودينًا وتصرُّفات ومواقف.

أيكون نوع الديانات هو السبب؟

لكأنما قصة الدين، وفكرة الخلق والله، تنشأ على الدوام لنفس الحاجة وتأخذ في تطورها نفس الأسلوب.

مثلما كانت منطقتنا العربية — وبالذات فلسطين — مهبط الديانات؛ فالهند هي أرض الديانات الآسيوية.



بوذا.

وتقريبًا، وفي نفس الحقب والأزمان، وفي خطٍّ مُوازٍ لنشوء اليهودية من الأخناتونية، والمسيحية من اليهودية وانبثاق الإسلام، وُجدت الهندوكية في الهند، فكانت بمَثابة الديانة الأم؛ إذ منها ولأجل تطويرها نشأ بوذا بتعاليم جديدة وأسلوب عبادة جديد، ومِن الهند انطلقت البوذية شرقًا وجنوبًا لتُصبح دين منطقة الهند الصينية وأجزاء من الصين واليابان. ومن البوذية نشأت ديانة «الزن»، ليس خروجًا عليها وإنما محاولة لجعلها أكثر تلاؤمًا مع الواقعية والحياة، وربما لهذا استوطنَت اليابان ولعبت في تطور اليابانيين أخطر الأدوار.

هذه الديانات لا تزال كلها قائمة ومُعتنَقة ومُتعايشة، ليس في آسيا فقط، إنما في كل بلد من بلادها أيضًا.

وأنا لا أريد الدخول في تفاصيل هذه الديانات كلٍّ على حِدَة؛ فهي معقَّدة كلها غاية التعقيد. إنَّ الديانات في عالَمنا نحن تبدو إذا قُورنت بالهندوكية أو البوذية كالمُعادَلات البسيطة السهلة ذات الحدِّ الواحد. هناك إله واحد خلق هذا الكون كله بما فيه الإنسان، وعلى هذا الإنسان أن يَنبِذ كلَّ عقائده الوثنية البدائية ويؤمن ويوحِّد ويعبد هذا الإله. وعبادة الله هنا بسيطة هي الأخرى حتى ليستطيع الطفل نفسُه مزاولتها. أين هذا مثلًا من تعاليم جواتاما بودا وعجلته الدائرة «الداما كاكا بافاتانا»، والحقائق النبيلة الأربع؛ حقيقة الألم، وحقيقة سبب الألم، وحقيقة منع الألم، والحقيقة النبيلة الرابعة عن الطريق الذي يقود إلى منع الألم؟ ناهيك عن كل الطرق المُضنية والبالغة التعقيد لتحقيق السيطرة الكاملة على النفس، والوصول بالإنسان إلى حالة «النيرفانا» أو قمَّة القمم. إني إنما أذكرها لكي أستطيع أن أُحدِّد أشياءَ هامَّة جدًّا، وفاصلة وقادرة حتمًا على إلقاء الضوء على النواة الوجدانية التي يَختلِف بها إنسان هذا العالم الآسيوي عن إنساننا.

قصة الخلق

في أديان عالَمنا توجد قصة الخلق أيضًا على هيئة معادلة بسيطة؛ فهناك الخالق الواحد — كما قلنا — وهناك الكون الواحد الذي خلقه في ستة أيام، والذي سيظلُّ قائمًا وموجودًا إلى يوم تقوم القيامة وتبدأ الحياة السرمدية الأخرى.

هناك إذن في أدياننا كَونان؛ كَون عابر مؤقَّت يُخلق مرة واحدة له بداية وله نهاية، وهناك كَون خالد يبدأ مع القيامة ولا ينتهي أبدًا.

هذا مفهوم واضح ومحدَّد لفلسفة الخلق، مفهوم له بداية، وله زمن محدَّد، وله أيضًا نهاية.

مفهوم مُختلف كل الاختلاف عن مفهوم الهندوكية مثلًا، باعتبارها الديانة الأم لعملية الخلق.

إنَّ الهندوكية ترى الكون أرحب بكثير من تصورنا نحن، وترى عمرَه أكثر طولًا بكثير، بل يكاد يكون في تصوُّرها لا بداية ولا نهاية، وإنما هو تعاقُب مستمر لفترات من النمو والخمود. إنَّ الدورة الكونية الأساسية تُسمى «يوم براهما» وطولها ٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠ عام.

في بداية هذا اليوم يكون الإله فيشنو راقدًا فوق الحية الكوبرا «شيشاء» التي ترمز إلى الزمن الخالد، وتكون شيشاء بدورها سابحة فوق المحيط الكوني، ومِن سُرة فيشنو

تنمو شجرة لوتس، ومن برعمها ينمو الإله «براهما» الذي يتولى عملية خلق الكون بالنيابة عن الإله فيشنو، ذلك الذي يَستيقظ بعد خلق الكون ويتولى أمره خلال بقية يوم براهما. وفي نهاية اليوم يُدمَّر العالم. بعض الروايات تذكر أن تدميره يتمُّ بواسطة الإله «شيفا». ويُمتَص العالم المدمَّر في جسد «فيشنو» مرةً أخرى، وهكذا ينام الإله لفترة تُماثل في الطول يوم براهما، وتُسمى «ليلة براهما» بعدها يستيقظ ليبدأ «يوم براهما» مرةً أخرى، ويعاد خلق الكون، وهكذا إلى ما لا نهاية.

وبعض المصادر تَذكر أن عُمْر «فيشنو» مائة عام، كلُّ يوم من أيامها طوله طول يوم براهما، وأن عمره الآن خمسون عامًا، وحين يَبلغ المائة ستذوب شخصيته وتَختفي في الحقيقة الواحدة الخالدة، أو الإله الأوحد الأعلى «البراهمان».

وبعد فترة خرافية الطول لا يكون فيها موجودًا سوى «رُوح العالم المُطلَق»، تظهر فيشنو أخرى، ونبدأ العملية من جديد.

وهناك بعض القطاعات الهندوكية التي تومن أن العالم من خلق الإله «شيفا»، وأنه خلقه بعملية تُماثل عملية الرقص، وأنه هو الذي يتولى تدميره أيضًا حين ينتهي زمنه، وبعملية رقص مماثلة أيضًا. ولولا هذا الفهم ما استطاع العالم أن يَظفر ببعضٍ من أرشق وأجمل الأيقونات الهندوكية؛ صور وتماثيل الإله الراقص شيفا «أناتاراجا».

هذا الفهم لعملية الخلق وإعادة الخلق لكون يكاد يكون لا نهاية لطوله، كان محتمًا أن يقود إلى فهم آخر مؤداه أنَّ الحياة نفسها عبء كئيب. فهي ليست حياة واحدة نحياها ونتخلَّص منها بنهايتها. إنها — حسب المفهوم الهندوكي لتناسُخ الأرواح — سلسلة متصلة من الحيوات التي لا تَنتهي، تظلُّ قائمة ما استمرَّ الوجود، يموت صاحبها ليولد على هيئة أخرى أو حيوان آخر، ليموتَ ويعود يولد من جديد، وهكذا. والنتيجة الحتمية لهذا أن يُصبح منتهى أمل الهندوكي أن يصل إلى مرحلة الخلاص أو الإفراج (الموكشا) من دائرة الميلاد والوفاة والتناسُخ المفرغة، مرحلة قد يَستغرق الوصول إليها عددًا كبيرًا من الأعمار والحيوات، وبرنامج طويل من الطاعة الروحية والاستغراق ووهب الذات. وكل مدارس الفلسفة، بل أصبح سر قبض الحياة كسرِّ الحياة وخلقها من أسرار الله، ولم يكن غريبًا أن تخلد الحضارة المصرية القديمة عن طريق نفس الوسائل التي ابتكرتها لتصنَع الحياة الأخرى قبل الحياة الفانية، ولتضع الموت في مرتبة أسمى من مراتب الحياة.

موقف الآسيوي من الموت

أما الإنسان الآسيوي فما أغرب الوسيلة التي لجأ إليها ليتَّخذ موقفه من الموت، بالمقارنة إلى عمر الكون المحدود وبدايته الواحدة ونهايته النهائية، وما استتبع هذا من ضيق بعمر الإنسان الواحد القصير المحدود، ونشوء فكرة الحياة الخالدة لتؤنس وحشة الإنسان الحي المُطارَد بفكرة انقضاض الموت عليه في أيَّة لحظة. بالمقارنة مد الإنسان الآسيوي في عمر الكون إلى درجة اللانهاية، وكان محتَّمًا أن يمتدَّ عمر الإنسان هو الآخر ليشملَ بالتناسخ العديد من الأعمار، ويظلَّ يُولَد ويتناسَخ ويموت ليعود يُولَد حتى يستحيل استمرار الحياة إلى عبء ما أروع أن يتحرَّر الإنسان منه. الموت لدينا «بُعبع» والموت هناك أمر مرغوب ومطلب. البقاء لدينا نصل برغبتنا فيه إلى حدِّ الهوَس، والبقاء هناك لعنة. العمر هنا سر محجوب عن صاحبه وعن البشر أجمع، وأمر يُقرِّره الله سبحانه، العمر هناك مرهون بقدرة شخص على إخضاع ذاته لإرادته، وكبْح الرغبة في المتعة واللذة لكي يأتي التحرُّر والإفراج أسرع.

الموقف من الحياة

وما دام قد تحدَّد فهم الإنسان للكون وموقفه من الموت، فمِن المحتَّم أنه تبعًا لهذا يتحدَّد موقفه من الحياة. والحياة في عالَمنا قصيرة كما قلنا، ومرة واحدة وتنتهي الحياة الدنيا إلى الأبد. لهذا كان محتَّمًا أيضًا أن يكون موقف إنساننا من الحياة هو موقف النهم الجشع الذي يستعدُّ للعبِّ منها ومن مباهجها قبل أن يهبط عزرائيل ليَقتلع روحه من جسده. إنه موقف المُستمتع الذي لا وقت لديه حتى للاستمتاع، موقف من يريد في أقل فترة من الوقت أن يَجمع أكبر ثروة ويحصل على أكبر مركز ويُشبع أكبر قدر من شهواته، دافعه لهذا خوف أصيل من موت مفاجئ، وعمر ليس في مقدوره أو بيده، وإحساس محضٌ بالزمن وبمُضيِّ الزمن، ورعب هائل من المشيب أو المرض أو الإحساس باقتراب المنون.

الإنسان الآسيوي مُختلِف، الحياة عنده امتداد طويل، والخلاص هو في الموت والتحرُّر، والتحرر لا يكون إلا بضبط النفس والسيطرة على مطالب الجسد والتحكُّم فيها لتستطيع الحياة في كفاف. الموت عملية سهلة تمامًا وطبيعية، مثلها مثل الميلاد تمامًا، مثلها مثل الحياة.



حسناء هندية.

لقد رأيت بنفسي جنازة هندوكية تُشيِّع ميتًا إلى حيث تضعه في المحرَقة تمهيدًا لنثر رماده في النهر المقدس الذي يَغسِل ماؤه الخطايا، ولم أكن أستطيع أن أمنع نفسي من الشعور بأن من يُشيِّعون الجثة ليسوا غير حزانى على الميت فقط، ولكنَّهم في الحقيقة يَحسُدونه على خلاصه من حياة هي في الواقع سقيمة ومُضنية ولا شيء فيها سوى العذاب.

ورأيت بنفسي أيضًا «فرحًا» هنديًّا، فرحًا له طقوس ضاربة في القِدَم؛ حيث يُزفُّ العريس من بيته إلى مكان الفرح راكبًا حصانًا مزينًا بطريقة أخاذة، وواضعًا فوق وجهه — وقد ارتدى البدلة العادية — غطاء رأس يَنسدِل على الوجه ويصبح نوعًا من القناع الغريب.

كنت مدعوًّا من قِبَل عمِّ العريس الذي أخذ يشرح لنا تفاصيل حفل الزفاف، وأهم ما فيه أن وقت عقد القران الديني لا يتحدَّد هكذا كيفما اتفق، ولكنه يتحدَّد بواسطة الكاهن، وقبل ميعاد القران بشهور، وباستشارة النجوم والأفلاك، وساعته محدَّدة مقدسة

— وكانت ليلتها العاشرة تمامًا — حيث يجلس العريس بجوار العروس على مقعد واحد وحولهما دائرة من النار، والكاهن يتلو التعاويذ والتراتيل والأدعية. ولقد دهشتُ حقًّا حين عرفتُ أن العريس جراح وحاصل على ماجستير في الجراحة، وأن العروس موظَّفة في بنك؛ إذ مهما كانت درجة تعليم الهندوكي ومكانته وثقافته فإن التقاليد العريقة في آسيا هي التقاليد، وليكن خريج كامبردج أو أكسفورد فإنه حين يعود إلى الهند فإنما يعود إلى حيث نشأتْ وترعرَعَت تقاليد لا يمكن الثورة عليها أو زحزحتها، يعود راضيًا سعيدًا؛ فالدين في الهند ليس علاقة بين الله والناس، إنما هو أساسًا وأولًا طريقة حياة وموقف من الحياة، موقف كثيرًا ما يرتفع إلى مرتبة التعصُّب. والمذابح بين الطوائف تنشأ ربما بلا سبب؛ فالتحيُّز لموقف الإنسان من الحياة شيء ليس قابلًا للمساوَمة أو الاتفاق، بل من هنا استطعتُ أن ألتقط بعض الحقائق التي دفعَت إلى قيام دولة باكستان الإسلامية.

اختلاف جذري

إنها إذن ليست قارة أخرى، إنها عالم آخر، إنه إنسان آخر. إنَّ الاختلاف بيننا وبينهم جذري؛ إنهم يكادون يكونون على طرفَي نقيض معنا، وبالذات معنا هنا في مصر حيث اتجاه المجتمع من قديم الأزل إلى الوحدة. إله واحد، وملك واحد، ومسجد واحد، وكنيسة واحدة، حيث على الجميع أن «يتوحَّدوا»، بل إنَّ شعار الوحدة نفسها ليرتفع إلى مرتبة الحقائق المقدَّسة، في حين أن حضارتهم هناك كانت وكأنما هي حضارة التنوع، المعبد الهندوكي خير مثلٍ يُجسِّده؛ فليس في المعبد كله بهو كبير واحد يَجمع الناس على صعيد واحد ليعبدوا إلهًا واحدًا، إنما المعبد مكون من أركان كثيرة في كل ركنٍ منها إله، هنا كريشنا، وهنا شيفا، حتى أسوكا الملك يكاد يكون معبودًا. وليست المسافة بين الإله والإنسان هناك بالغة الضخامة بحيث يبدو الكائن الإنساني مجرَّد حصوة أو رملة تخرُّ ساجدة أمام الجبل الأعظم. إنَّ الإله هناك أليف، حتى تماثيلُه صغيرة، التمثال منها لا يتعدى طوله المتر، والعبادة تتم بلا رهبة وبلا ركوع أو سجود وإنما هي تحية عابرة كالتي يُلقيها عابر سبيل إلى عابر سبيل. والنذور بسيطة، معظمها من فقراء وأكثرها لا يتعدى القرش. وإذا شئت أن تجعل طعامك أو شرابك مقدسًا فما عليك إلا أن تطعم فمَ الإله بعض هذا الطعام ليصير كله مقدسًا. وحتى المعابد الكبيرة أحيانًا لا لزوم لها بالمرة؛ فالإله مُمكن أن تعبده في بيتك، أو إذا لم يكن في البيت متَّسع — وغالبا لا يكون في البيوت الفقيرة متَّسع — ففي كل حارة أو حي هناك كوخ صغير لتمثال الإله.

راودتْني أفكار كثيرة وأنا أجوس خلال الهند وتايلاند وقرى الصين في مستعمرة هونج كونج. كنتُ أحاول أن أعثر على تعريف دقيق لهذا النوع من الحضارات، أتكون حضارة الفقراء المتقشِّفين؟ أتكون حضارة الزهد؟ أتكون الحضارة الأحدث باعتبار أن حضارتنا الأقدم وباعتبارها عاشت طويلًا حتى كادت تشيخ، في حين أنهم هناك لا يزالون في مرحلة تقديس العجل أبيس أو البقرة المقدَّسة التي يرمزون بها أحيانًا للهند، بل إنهم يعبدون الهند نفسها باعتبارها الأم ومغادرتها أو السفر خارجها أمر مكروه وغير مُستحَب.

وعلى هذا العالم الآخر المختلف أقدمت أمريكا تُمثِّل قمة الجشع في عالمنا، وكان الصدام المروع بين الزاهدين والجشعين، بين من يرعبهم الموت باعتباره نهاية الأشياء كلها ومن يسعون للموت باعتباره الخلاص الأعظم، بين من يحيَون بالكفاف وللكفاف ومن يحيا الفرد منهم بأعظم مستوى للدخل في العالم، بين من يَشمئزُّون من أكل اللحوم ويتورَّعون عن ذبحها والتهامها وبين مَن هم على استعداد لالتهام لحوم البشر نفسها لو كانت تصلح مادة للطعام، أو لو كان في التهامها تفوُّق لإمبراطورية القوة الغاشمة التي يُحاولون تثبيت دعائمها في عالَمنا هذا.

الفصل الثالث

قصة انتحار أعظم كاتب ياباني

لغز عويص الفهم

قبل أن أصل إلى اليابان بيوم، كانت الجزر اليابانية الأربع تهتزُّ بحدث وإن لم يكن الأول من نوعه في تاريخ اليابان، فإنه فريد في بابه، وخطير وغريب.

كان «ميشيما» كاتب اليابان الأول، وأعظم روائي ظهر فيها بعد الحرب، كانت هذه الشخصية الفريدة ذات الأبعاد العشرة؛ فهو كاتب، ومخرج سينمائي، وممثل، وبطل مصارعة وركوب خيل، ورياضي، وقائد جيشٍ خاصٍّ من صُنعِه، وذو نهم شديد إلى النساء، وذواقة للساكي «النبيذ» الياباني الشهير المصنوع من الأرز، شخصية تكاد تكون أشهر شخصية أدبية في كل شرق آسيا، كان قد أقدم على الانتحار بالطريقة المشهورة «الهيراكيري».

وكانت ضجة الحدث داخل اليابان وخارجها على أشُدِّها؛ فقد كان السبب غريبًا، والملابسات أغرب، وشيء كجوٍّ الأساطير القديمة، كنفحة من رائحة آسيا الغامضة الدفينة قد بدأ يتسرب ويداعب الأنوف.

ولم يحنقني شيء في هذا كله قدر حنَقي على «آرثر ميلر» الكاتب المسرحي الأمريكي المعاصر، وأنا كنتُ دائمًا بيني وبين نفسي أتحاشَى الحكم على ميلر؛ فمِن قراءاتي ومشاهداتي لأعماله كنت أُسميه بيني وبين نفسي أيضًا الكاتب الذي يحاول أن يكون عبقريًّا. ولأن العبقرية ليست وليدة الاجتهاد، بل إنَّ الاجتهاد للوصول إليها أمر يحسب على الشخص لا له؛ فقد بقي ميلر في خاطري كاتب تمثيليات إذاعية أتقن صنعة الدراما وعالج بها مواضيع تُساير تيار التقدم في العالم، فرفعه السابحون في التيار إلى مصافِّ

العباقرة الكبار. ولم أكن أعتقد أن رأيي هو الصواب، ولكني أيضًا لم أتوقع أن يتأكد ظني فيه بالذات في تلك المناسبة وعلى هذه الصورة.



ميشيما، الكاتب الياباني.

ففي مجلة «النيوز ويك» كان موضوعها الرئيسي هو انتحار ميشيما ومغزاه ودلالته، ولتغطية الحدث تولَّت المجلة أخذ رأي بعض الشخصيات الأمريكية الهامة فيه. وكان ميلر على رأس القائمة، وكان ما قاله أسخف ما قيل؛ فبعد أن اعترف بميشيما ككاتب رواية وجرحه بشدة ككاتب مسرح، قال ما معناه: إن ما فعله ميشيما ليس سوى فاصل استعراضي أنهى به حياته؛ لأنه تأكد أنه لم يَعُد لديه ككاتب ما يقوله. ميشيما بالمناسبة مات في الخامسة والأربعين ولا أعتقد ولا يُمكن أن يعتقد أحد أن كاتبًا خصبًا مثله ينتهي في سنٍّ كهذه أو يدفعه تأكُّده أنه انتهى ككاتب ليُنهي حياته كإنسان.

وأيضًا ليست هذه هي القضية، لقد بدا لي رأي ميلر بعد جولة آسيا واستقراري في اليابان وبداية تعرُّفي على عناصر اللغز الآسيوي، أن تعليقه حتى بفرض أنه كاتب تقدمي، لا يَختلف عن معظم التصرفات الأمريكية الرعناء تجاه آسيا، وأن الإنسان الآسيوي سيظلُّ لغزًا عويص الفهم، بل ربما مستحيل الفهم حتى على أولئك الذين من جملة عقيدتهم وعملهم فهم الآخرين وتقادير وجهات نظرهم.

ولستُ أعرف كيف كان بإمكاني أن أجسد ما أريد قوله لو لم تجئ قضية ميشيما في وقت الزيارة وتُزوِّدني بكثير من الحقائق والشواهد لم أكنْ أحلم به.

ولكن — قبل الفهم وقبل أي شيء آخر — كان الحادث قد مسَّ قلبي بعُنف، ولو تأمَّله كل منا قليلًا لما استطاع أن يُفلِت ما مِن تفسيره، ولم لا أقول: إني ترجمت الحادث إلى واقعنا فورًا وتصوَّرت أكبر كاتب لدينا، وقد رتَّب لعملية إجهازه على نفسه وكأنما يُرتِّب لعمل فني، وبنفس الإحكام؟ كان عليه أن يُكمل الجزء الأخير من رباعيته الروائية التي تتناول حياة اليابان خلال الستين عامًا الأخيرة، كان ثمة فصلان ناقصان لإنهاء الجزء الرابع والأخير. وبأي ذهن وأعصاب ووجدان كان يَقضي ميشيما معظم ليالي الأسبوع الأخير من حياته ساهرًا لكي يَنتهي من العمل تمامًا قبل حلول اليوم الذي كان قد حدَّده من قبل لتنتهي حياته فيه، حتى والموت الإرادي قادم متصوِّر أنه لا بدَّ أن تطير له العقول شعاعًا، لم يَطِر له عقله.

صبيحة يوم الانتحار

وبإتقان شديد أكمل الفصل، وفي صبيحة يوم انتحاره أسلَمَه للناشر مكتوبًا على الآلة الكاتبة ومصحَّح الأخطاء، وهو أبدًا ليس رجلًا من فولاذ، إنه فنان مُرهَف الحس تمامًا، لديه مخزون هائل من الإحساس، وهؤلاء المُرهَفون المزوَّدون بالإحساس الأعظم لم يكونوا يومًا ما رجال الإرادة التي لا تتزحزح، ولا رجال الأفعال التي لا يقدم عليها إلا أرباب الإرادات. وكان الناس في هذا نوعَين؛ رجال الكلمة ورجال الفعل. رجال الكلمة يُتقنونها وينبغون فيها لأنهم بتكوينهم غير قادرين على الفعل الكبير، ورجال الأفعال الكبيرة يقومون بها لأنهم عاجزون عن خلق الكلمة الكبيرة التي تحلُّ محلَّ الفعل أو تقوم مكانه. الكُتَّاب إذن ما كانوا أبدًا أرباب السيف؛ فبطولتهم ليست في ضربة يُطيحون فيها برأس

خصم، بطولتهم الحقة في كلمة تنطلق منهم مرة يكون لها قوة ألف ضربة، وتظل تضرب وتطيح برءوس من وما هو أقوى من الخصم والشخص ما ظلَّت عائشة وحية، وبمقدار صدقها والبطولة في قولها تظلُّ تعيش وتحيا.

إنه إذن ليس طبعه الذي أخذ به نفسه، وليسَت طبيعته، إنما هو الإحساس بالواجب المقدَّس ذلك الذي أملى عليه فعلًا هذه المرة بدل الكلمات، وهو نفس الإحساس الذي دفعه أن يَقهر كل كوامن الضعف في ذاته المُرهَفة الحساسة ويُحيل ما فيها من تحمل إلى كتل صخر، ويعود من الشرفة بعد فشله الذي كان يتوقَّعه في مهمته ليرتدي الكيمون، ويعقد أربطته وأزراره منتهى ضبط النفس والإتقان؛ فلقد فحصت الصور جيدًا وأدركت أن صاحبها أبدًا لم يُفلِت منه زمام السيطرة على أعصابه إلى آخر لحظة. يجلس وحوله أركان حربه، ويَجيء المصوِّرون ويلتقطون له ولرفاقه الصور التذكارية. تم يُمسِك بسيف «الساموري» العتيد الذي كان يحتفظ به رغم مخالفة هذا للقانون، ويرفع السيف ثم بسرعة يغمده في أعلى بطنه إلى المنتصف، وهنا فقط يُطلِق صرخة قال عنها قائد قوات الدفاع المدني الذي كانوا قد أسروه، قال: كانت صرخة ألمٍ بشعة، لم أسمع مثلها في حياتي.

وما كاد يَحدث هذا حتى كان مساعده الأول منتصبًا خلفه، يرفع سيفه ويَهوي به في سبع ضربات شداد يجتزُّ به عنق قائده حتى يَفصل رأسه عن جسده ليسقط إلى جوار الجثة. ثم يجلس المساعد نفس جلسة رئيسه، ويتولى إغماد سيفه في بطنه. تم يتولى الضابط الثاني مهمة الإجهاز عليه وجزَّ عنقه بسبع ضربات أخرى من ضربات سيفه حتى يسقط الرأس في بركة الدماء. وإلى هنا كان المشهد الأعظم قد انتهى؛ إذ كانت أوامر ميشيما لرجاله أن لا يَموت سواه وسوى مُساعدِه الأول.

انتهى مشهد الهيراكيري كما ابتدعه وزاوله فرسان «الساموري» في اليابان القديمة. كل ما في الأمر أن الرأس الذي سقط هذه المرة لم يكن رأس قائدٍ فشل في حرب، أو ضابط أهمل واجبه، ولكنه كان رأس أعظم موهبة أدبية يابانية في تاريخها الحديث، رأسًا منذ ساعات كان يكمل بحماس زائد وبخيال مُلتهِب أهم عمل أدبي كتبه ميشيما أو غيره عن أهم فترة في تاريخ اليابان.

وجه آخر لدنيانا

وقد نفهم أسباب انتحارِه أو لا نفهم، وقد نستطيع التعاطُف معه أو نكتفي برميه بالأوصاف والتُّهم. ولكنَّنا إذا ترجمنا الحدث إلى واقعنا، وإذا تصوَّرنا أن أشهر كاتب وأعمق مُبدِع فينا قد أنهى حياته بيده وعلى هذه الطريقة البالغة البشاعة وهو في أوج مكانته وشهرته وفي عنفوان فحولته، وجائزة نوبل تخطو متهادية إليه، واسمه وأعماله تَخطف الأبصار في أركان الدنيا الأربعة؛ إذا ترجمنا هذا للغتِنا نحن ولحياتنا ولواقعنا ربما أمكننا البدء في إدراك ما حاولت في المرة الأولى طرحه، من أننا إزاء إنسان مُختلِف، إزاء وجه آخر لدنيانا، إزاء أشياء من الواجب أن نُفيق من غفوتنا المخدَّرة بالسأم والتافه والهايف ونفتح أعيننا ونمسح تعابير العبط والاستعباط من فوق وجوهنا وننتبه.

مرة أخرى لنصحُ ونَنتبهْ.

الإغماءة طالت.

وليتها رغمًا عنَّا.

إنه إغماء ابتكارنا نحن، إغماء بالإرادة، لا يُغمى علينا فيه، وليس هناك مبني للمجهول في المسألة، إنما نحن الفاعل ونحن المفعول، والظرف غير مناسِب على الإطلاق.

الشعور القومي الأمثل

إذا صدق الكاتب فإنه يعيش ما يكتبه، وإذا ازداد صِدقُه فإنه يكتب ما يعيشه، أما ما فعله ميشيما فهو نوع آخر من «الكتابة–الفعل»، نوع كالمسرح الحديث الحي، حيث لا شيء فيه تمثيل، وإنما كل ما يدور حقيقي وصادق أيضًا. وميشيما لم ينتحر كما رأى ميلر لأسباب نفسية أو أزمة شخصية اعترتْه، إنما انتحَر لسبب قد يبدو للبعض تافهًا غاية التفاهة، وبالذات قد يبدو لنا هنا حيث الانتحار لا يتمُّ إلا لأسباب تتعلَّق بكيان الشخص ذاته أو بمصيره أو بفشله هو، أما أن ينتحر إنسان مثلًا لأن نظام التعليم لا يُعجبه، أو لضيقه بالسياسة، فذلك ما لا عهد لنا به وما لا نَستطيع أن نتصوره.

ولكنَّك من داخل اليابان آسيا تستطيع. إنَّ الشعور القومي هناك، رغم كل محاولات إخفائه والتستُّر عليه، شعور طاغٍ تحفل به الأعماق. إنه أول بلد أفاجأ في أول لحظات وجودي فيه ببعض الناس يضعون رباطًا طبيًّا حول أنوفهم أو يُغطون به عينًا من عيونهم، وحين سألت عن السبب قيل لي إنهم يفعلون هذا حتى لا يُلوِّثوا الجو حولهم بالميكروبات ويَنقلوا العدوى إلى الآخرين.

إلى هذه الدرجة يهتمُّ الفرد الياباني العادي بالآخرين ويحرص عليهم، حتى وهو في مرضه يُفكِّر فيهم. إنه إذن الشعور القومي الأمثل. والغريب أن هذا الشعور لا تجده في اليابان وحدها، إن كل مناطق آسيا تحفل به، ذلك الإحساس المتين العميق بالقومية وبالشخصية القومية، وبأنك مهما كنتَ جزءٌ مِن كل.

قص على صديق مصري يعيش هناك قصة فتاة يابانية أعجبتْه وأعجبها، بل كان واضحًا أنها مُدلهة به، وانسياقًا وراء هذا الشعور دعاها إلى حجرته وتناولا معًا الطعام والشراب، وانسياقًا أيضًا وراء هذا بدأ يَقترب منها كرجل، وفوجئ بها تَغضب غضبًا لا مُبرِّر له من وجهة نظره على الإطلاق، ولكن كان له مبرِّر واحد قوي — على الأقل — من وجهة نظرها؛ فقد قالت له: لا تنس أني لستُ نفسي فقط معك هنا، إنما أنا هنا أمثل المرأة اليابانية، وأيضًا لا تنسَ أنك تُمثِّل الرجل المصري أمامي. وهي قصة طويلة تلك التي استطاع بها الصديق المصري أن يُقنِع فتاته اليابانية بإبعاد شبح مائة وخمسة وثلاثين مليونًا من البشر، هم مجموع الشعب الياباني والمصري من حجرته، ليستطيع أن يَنفرِد بها وحدها وتنفرد به. قصة طويلة لأن اقتناع الفتاة كان حقيقيًّا وصادقًا بأن كل حركة منها أو تفريط إنما ستُحسَب على المرأة اليابانية بشكل عام، وقد تكون هي راضية وموافقة، ولكن المحافظة على صورة المرأة اليابانية في نظر رجل أجنبي أهمُّ بمراحل من كل رغباتها ونوازعها الشخصية.

هذا الإحساس القومي ليس مرَضيًا أو غريبًا، «ذلك الذي يدفع اليابانيين والآسيويين عمومًا لموقف التخوُّف والتشكك من الغريب.»

مناطق معزولة

إن معظم مناطق آسيا معزولة عن بعضها البعض بعوامل جغرافية في بعض الأحيان. بل إنَّ اليابان بالذات معزولة عن آسيا نفسها، مثلها مثل إنجلترا، مجموعة من الجزر تقع شرق القارة مثلما تقع بريطانيا غرب أوروبا. ولقد بقيَت اليابان في عزلة تامَّة منذ حوالي عام ٧٠٠ ميلادية إلى حكم الإمبراطور «ميجي» في العصر الحديث، معزولة تمامًا عن العالم، حتى إنَّ الآسيويين كانوا يُسمونهم «الأقزام السمر». هذه العزلة الطويلة أنضجت وعتقت الشعور القومي إلى درجة تكاد تكون مبالغًا فيها، إلى درجة تكاد تكون النقيض لما جرت به الأحوال هنا في مصر بالذات، حيث البلاد مفتوحة على الدوام مشاعة على الدوام، مستعدَّة على الدوام للاختلاط بالحابل والنابل.

ومن أجل هذه العزلة وبسببها فقد نما هذا الشعور القومي الياباني متمثلًا في تقاليد عريقة في الشخصية وفي العادات الاجتماعية وفي طريقة الحياة هناك، حيث شاعت وترعرعت ديانة «الزن» التي جاءت ثورة على البوذية، والتي تَستحِق وحدها وقفة أطول بكثير؛ فهي في رأيي أخطر وأهم الديانات الآسيوية، فهي ليست دينًا بقدر ما هي معادلة تكاد تكون — بمفهومنا نحن العِلمي — معادلة علمية لطريقة الحياة؛ فالدين ليس إيمانًا أو صلاة بقدر ما هو سلوك، والإنسان فيها لا يَشغل نفسه بقضايا الغيب وما وراء الواقع وإنما شُغله الشاغل هو هذه الحياة التي يحياها وكيف يحياها.

هكذا، حين تعتَّق الشعور القومي طويلًا، كان لا بدَّ له في النهاية أن يبدأ يغلي، وينسكب، ولا بدَّ حينئذ أن يبدأ العالم يراه. وأول مرة لمح فيها العالم ذلك الشعور كان في عام ١٩٠٤ حين اشتبكت اليابان في حربها مع روسيا وهزمتها، ثم بعد ذلك بعدة أعوام حين احتلت أجزاء كثيرة من الصين، ثمَّ أخيرًا حين اشتبكت في حرب الباسيفيكي مع الولايات المتحدة.

الانفجار الاقتصادي المعاصر

ولكني أعتقد أن كل هذه الأعراض العسكرية للقومية اليابانية ليست أخطر الأعراض، والدليل أنها جميعها فشلت. إنَّ العلامة الأهم في رأيي والأكثر دلالة هي الانفجار الاقتصادي الياباني المعاصر؛ فلقد غيَّر اليابانيون التكنيك تمامًا، وبدلًا من الاصطدام مع آسيا مرة ومع الغرب أو غيره مرات، تعلموا — بدل الصدام — الامتصاص، امتصاص كل ما لدى آسيا من قدرة على العمل الدائب وطاعة النفس والتخطيط الطويل المدى، وامتصاص كل ما لدى الغرب من علم وتكنولوجيا وأسرار صناعة، وبهذا المزيج من القدرة البشرية والقدرة الآلية العِلمية استطاعت الشركات الخمس الكبرى في اليابان، والثلاثون عائلة التي تُمسك بمقاليد الأمور أن تتمكَّن، وفي ذكاء شديد، من تفجير تلك القُنبلة الصناعية الأشد خطرًا في رأيي — وحتى من وجهة نظر عسكرية — محضة من قنابل الأيدروجين والكوبالت.

ولكن المشكلة التي كانت تورق ميشيما وغيره من مُمثلي الضمير الأعمق للقومية اليابانية بدأت تظهر إلى الوجود شيئًا فشيئًا؛ «حسن جدًّا، لقد رأينا كيابانيين أن نَستعين بحضارة الغرب وعلومه وصناعاته لقهر الغرب والتفوُّق عليه. كانت هذه هي الخطة، وكان

هذا هو البرنامج، ولكن الشيء الذي لم يكن في الحسبان قط هو أن يبدأ هذا العلم الأمريكي الأوربي، وتبدأ صناعة الغرب نفسها وتقاليده الصناعية، تبدأ تعمل عملها في الإنسان الياباني، وبالذات في أجياله الجديدة، وتبدأ الصناعة نفسها تَخلق لها جيلًا وثقافة وتقاليد مختلفة تمامًا عن تقاليد اليابان القديمة وأخلاق «الساموري – الفرسان اليابانيين»، وحتى عن تقاليد «الشرق» نفسها ونمطها السلوكي. لقد جاء الإنسان الياباني إذن بالصناعة ليستخدمها كوسيلة للتفوُّق، فتولت الصناعة نفسها تغييره، تولت إذابة التعاليم التي تراكمت أجيالًا فوق أجيال، تولت تخفيف هذا الإكسير القومي وإضافة كل بهارات الغرب من الإل إس دي والشذوذ الجنسي والجاز والاستهتار بالحياة نفسها كحياة، والتساؤل والقلق عما هو الهدف. ماذا بعد التفوق الصناعي والعلمي والحضاري؟ ماذا حتى لو وصلنا إلى أن نصبح أكثر البلاد دخلًا وأكثرها إيرادًا قوميًّا؟

«جيل جديد طاغٍ مُكتسح نشأ، وسائل حديثة من راديو وتليفزيون وصحافة تمسح الماضي كله وتُحيل مسرح الكابوكي الشهير إلى المتحف، وتقاليد الجيشا العتيدة إلى مركز كمركز الفنون الشعبية يحتفظ به اليابانيون الأذكياء ليُفرِّجوا عليه السياح ويذيقوهم جرعة من خمر اليابان القديمة ويلتقطوا معهم الصور والتذكارات.»

جيش خاص من الشبان

ولم يكن أمام الجيل الذي يُمثِّله ميشيما ومن هم أكبر إلا أن يقفوا حيارى مذهولين أمام ما حدث لليابان وما يَحدث. لم يكن أمامهم إلا أن يبدءوا يَستنهضون همم الأجيال الجديدة ويُذكِّرونهم بما فات، ويقصُّون عليهم قصص الأمجاد. لم يكن على «ميشيما» إلا أن يبدأ يُكوِّن جيشًا خاصًّا من الشبان الجدد، جيشًا لم يتجاوز عدده ٩٨ شابًّا، كان يُمرِّنهم بنفسه على المصارعة اليابانية وعلى أساليب القتال المختلفة، وكان يعدُّهم ليُكوِّنوا نواة الجيش الإمبراطوري الذي لا بدَّ في رأيه أن يوجد، ولا بدَّ أن يقودَه الإمبراطور مرةً أخرى ليُعيد لليابان عصرها الذهبي الذي — في رأيه — قد ولَّى.

وحين أحسَّ ميشيما أنه إنما يُؤذن في مالطة، قرَّر أن يقوم بما لا تستطيع الكتابة نفسها أن تقوم به، قرَّر أن يقوم «بالفعل» بما هو أكبر وأعظم وأهم من الكلمة. وهكذا خطط للعملية كلها مع جيشه الصغير.

وفي صباح ذات يوم من أسابيع مضَت ذهب بجيشه واقتحم مكتب الجنرال قائد قوات الأمن «وهو الجيش الذي سمحتْ قوات الاحتلال الأمريكية بتكوينه» وأخذه كرهينة

حتى يَجمعوا له تلك القوات ويخطب فيها وإلا قتَل القائد. ولبوا نداءه. وجمعوا له حوالي الألف من جنود هذه القوات وضباطها، وأخذ يخطب فيهم مطالِبًا إياهم بالقيام بشبه انقلاب يُغيِّر من شكل الحكم في اليابان، بحيث تتمكَّن من استعادة قدرتها على التسلُّح وعلى تكوين ما تريده من جيش. ويقولون إن القوات ظلَّت تنظر له بسخرية وتضحك مما يدعوها إليه خاصة حين دعاهم لأن يموتوا جميعًا معه حتى يوقظوا ضمير الأمة ويُحقِّقوا بموتهم ما لم يستطيعوه وما لن يستطيعوه بحياتهم.

وحين فشل تمامًا في إقناعهم، غادر الشرفة التي كان يخطب منها ودخل حجرة القائد الرهينة وأمامه قام بعملية «الهيراكيري» كما رأينا.

والحقيقة أني لم أكن قد قرأتُ شيئًا لميشيما قبل الآن، وكان أول ما فعلته أني اشتريت الكتب الأربعة التي تُرجمت له إلى الإنجليزية وقرأتها جميعًا، والحقيقة أني تولاني الذهول. إنه كاتب موهوب — وأرجو أن أتمكن من ترجمة شيء له ونشره قريبًا — ما في ذلك شك. قدرته ما في ذلك شك. قدرته وافرة على الرؤى، وخياله يرفرف في انطلاقة الطائر الطروب. كاتب عذب كأنه عقدة آسيا كلها تنحلُّ بين يديك، كأنه «القزم الأسمر» يَنفتِح له قلب من أحلام وذهب. كيف بإنسان مثله يقوم بدوره الدون كيشوتي هذا؟ كيف بإنسانيته الحريرية تتصوَّر وتُطيق ليس فقط أن تطعن نفسها بسيف من أعلى البطن ولكن ما هو أبشع، أن يَنهال سيف المساعد على رقبتها بعد هذا في سبع ضربات شداد يجزُّ بها الرقبة؟ بل كيف بهذا الفنان العظيم يضمُّ ذاته على هذا الإحساس السياسي الغريب، إحساسه بإمبراطورية تقوم من جديد أو جيش وحروب وأهوال؟

الفصل الرابع

الفن الفعل، والفعل الفن

الفن العظيم

ما من كاتب في رأيي إلا واحتلَّت رأسه يومًا ما وبطريقة ما فكرة أن يَقتُل نفسه أو يُنهي هو — وبيده — حياته.

إنَّ الكاتب الفنان لا تختلف حياته أبدًا عن عمله الفني، كلاهما مُنفتِح على الآخر شديد الصلة به حتى إنه ليُفكر في أمور حياته كما لو كانت حياة بطل من أبطاله وكما لو كانت قصته، وإنه ليُفكِّر في القصة أو بطلها أحيانًا كما لو كانت حياته الواقعية التي يُزاولها. والنهاية أي نهاية في رأيي، هي ركيزة أساسية من ركائز القصة، بل إنَّ مواهب بعض الكُتَّاب لا تتجلى بقدر ما تتجلى في نوع اختيارهم وطريقة إنهائهم للقصة. ولهذا فتفكير أي كاتب في الانتحار لا يُعدُّ مسألة غريبة؛ فهو محاولة لوضع نهاية لقصة حتى لو كانت قصة حياته، ولو درست هذه المسألة بعناية أشد لوجدنا أن خواطر إنهاء القصة تأتي في العادة في فترات بعينها من حياة الكاتب، تلك التي يُراودُه فيها إحساسه كقصاص أن الحكاية انتهت أو حبذا لو تنتهي هنا؛ ذلك لأنه في هذه الحالة، مهما كانت درجات يأسه أو مهما كان دافعه، فإنه يود بهذه النهاية الإرادية لحياته أن يجعل هذه النهاية أو يجعل قصة حياته نفسها كما يجعل أي قصة أخرى يكتبها تقول شيئًا.

الموت الإرادي إذن لغة يقول بها الكاتب — أو أي إنسان آخر — شيئًا لا بد عجز عن قوله بطريقة أخرى، أو اختار لقوله هذه الطريقة لتُحقِّق بتأثيرها ما لا يُمكن لأيِّ فن أن يحققه.

وفي الفصل السابق تحدَّثتُ عن انتحار ميشيما فجأة، وأنا أتساءل كمَن يتساءل مستنكرًا عن كنه هذه «العملية» الدون كيشوتية تجيء من كاتب عظيم الموهبة مثله. والحق

أنه انطباع خاطي، بل إنَّ تفسيري لدون كيشوت يختلف تمامًا عن التفسير المعروف للقصة، بل وحتى عن سخرية كاتبها نفسه من البطل؛ فدون كيشوت وقد دُجِّج بالسلاح واصطحَبَ تابعه وخرج يطلب البطولة عن طريق مبارزة الأعداء وصرعهم، يَصدر في موقفه هذا عن نفس الدافع الذي يحدو بالكاتب أن يكتب أو الفنان أن ينتج.



دون كيشوت.

إنَّ الأعداء الذين يَقضي عليهم الكاتب في روايته وهميون — مثلهم مثل أعداء دون كيشوت تمامًا — وكله صراع على الورق وكلام في كلام، هذا صحيح، ولكن المُشكلة الحقيقية أن العمل الفني الروائي ليس مجرد وهمٍ أو كلام، والكاتب ليس صانع أوهام. المشكلة أن الفن العظيم هو أساسًا «عمل» عظيم، والكتابة الحقيقية ليست جُمَلًا متراصَّة وكلمات. إنها «عمل» حقيقي، وصراع حقيقي، كل ما في الأمر أنَّ المسائل اختلطَت لأن كثيرًا جدًّا من القصص والكتابات هي فعلًا مجرد كلام في كلام وصانعها حقيقة صانع أوهام.

صحيح، اذهب إلى دار الكتب وتأمَّل آلاف الكتب المؤلَّفة. وحاول أن تتخيَّل هذا الكم الرهيب من الكلمات، غابات الكلمات، رمال الكلمات، صخور الكلمات وزلطها وترابها وطينها ووحلها. لا بدَّ حينئذ أن يَنتابك خاطر، خاصة إذا علمتَ أن معظم هذه الألوف المؤلَّفة من الكتب كُتب ونُشر وذاع وانتهى دون أن يُخلِّف أثرًا أو يُغيِّر شيئًا في الإنسان. ستجد أن الذي غيَّر فعلًا، الذي حول مجرى حياة البشر، ليس سوى عدد محدود جدًّا من الكتب كمجموعة قليلة من الكائنات الإنسانية التائهة في غابات الكلمات وأحراشها.

لقد كان تقدمًا خطيرًا ذلك الذي حدث للإنسان حين اكتشف الكتابة وتعلُّمها واكتسب بها خاصية ميزته، وللأبد، عن كل ما عداه من مخلوقات. خاصية بقُدرته عليها استطاع أن يقفز قفزات التطور الهائلات، ولكنه بها أيضًا، أو بالقدرة عليها، استطاع عدد كبير من أفراده أن يُصبِحوا «كُتابًا» وأن يشغلوا بكتاباتهم آلافًا وآلافًا من الصفحات، وآلافًا وآلافًا من العقول بلا فائدة بالمرة. مجرد ضجيج هائل مرسوم على الورق لا يُسمِن ولا يُغني من جوع. ضجيج أصبح في الحقيقة شديد الخطورة، خاصة بعد اختراع الطباعة؛ إذ أصبحت الكتب طوفانًا والكتابة حرفة سهلة والسماء تكاد تُمطِر أحرفًا مطبوعة، أحرفًا خطورتها أنها لا تَفترق أبدًا عن الأحرف الحقيقية، وكتابات لا تكاد أبدًا تفترق عن الكتابات الأصلية التي تُغيِّر حقيقة البشر وتصنع التاريخ. خطورتها أن التفريق في أحيان يكاد يكون مستحيلًا، والعثور على الكلمة الحقيقية داخل مليون كلمة زائفة عمل ميئوس منه.

الكلمات التي تزلزل الأعماق

وليس هدفي هنا أن أوضح الفروق بين العمل الفني الكتابي الحقيقي والعمل السطحي أو الزائف، ولكن حمدًا لله؛ فقد استطاعت البشرية على الدوام، وحتى قبل إنشاء علوم النقد ووجود النقاد، أن تُدرك بطريقة أو بأخرى الأصيل من الزائف.

إنما هدفي هنا أن أوكِّد حقيقة أصبحت على يقين منها، فليكن للنقد مقاييسه وطرقه في تصنيف أنواع الكتابة، ولكن المقياس الذي يُهمني هنا هو مقدار فاعلية الكتابة. إنَّ فنية العمل، في رأيي، وصدقه وجماله تُقاس بمقدار فاعليته وتأثيره على نفس المُتلقِّي أو القارئ. الأغلب أننا نقرأ وننسى، أحيانًا نقرأ ونتعلم، في أحيان نقرأ ونتسلَّى، نادرًا جدًّا فقط ما نقرأ ونهتزُّ اهتزازًا عميقًا بما قرأناه بحيث إننا نُصبح بعد القراءة غيرنا قبلها، بحيث حقيقة تتغيَّر، نعتنق مبدأً آخر، نتخذ من الحياة موقفًا آخر، يتغيَّر هدفنا من الوجود، من عقلنا تُستأصَل مُسلَّمات، في وجداننا ينمو مثل آخر أعلى.

هذا النوع من الكتابة لا يُمكن أن يكون مجرد كلام، ولا يُمكن أن يكون خالقه صانع أوهام. الكلمة هنا ليست كلمة، إنها عمل، إنها Action. ولا يُمكن أن تجيء أيضًا إلا نتيجة Action. هذه الكلمة الديناميكية الحاوية لتُحفة حقيقية تُزلزل أعماقنا لا يُمكن أن تكون مجرَّد براعة في رسم الحروف أو ذكاءً في ابتداع التشبيهات. هذه كلمة صادقة، والصدق هنا ليس عكس الكذب. الصدق هنا معناه أنها فعل حقيقي نتيجة فعل حقيقي وليست أبدًا بديل فعل أو عجزًا عن إمكان فعل.

تراثنا الشعري العربي

وأمامنا تراثنا الشِّعري العربي، ما أكثر ما فيه من حماسة، وما أكثر ما يحفل به من قصائد تهيب بنا أن نضحي بأنفسنا في سبيل أمتنا وبلادنا ومبادئنا! والحق أنها ليست كلها شعرًا رثًّا، فيها حقيقة شعر جيد، ورُؤًى شعرية جميلة، وفيها تشبيهات واستعارات وكنايات، ولكننا نستقبلها بعين ونُودِّعها بالعين الأخرى، ولا نفكر طويلًا في ترك كل شيء والإسراع في تحقيق ما يدعونا إليه الشاعر. السبب أن الشاعر هنا جالس على قهوته مستريح آمن ويظنُّ أنه ببراعته في قرض الشعر وقدرته على تسخير الكلمات في استطاعته أن يدفعنا للتضحية دون أن يُكلِّف نفسه هو عناء التضحية، بحيث تكون كل تضحيته هي الوقت والجهد ولفافات السجائر التي أحرَقَها وهو يكتب القصيدة.

ولكن في تراثنا الشعري العربي أيضًا قصائد، بل الحقيقة أبيات قليلة جدًّا قرأناها فزلزلتنا وأنشدناها ففجَّرت فينا ثورة، وبنا غيَّرت مجرى التاريخ؛ ذلك أنها ليسَت مجرد شعر وكلام جميل؛ إنها فعل شعري، إنَّ قائلها حتى لو كان جالسًا وقتها على قهوة ولكنه كتبها من موقف نفسي صادق، بذمة كتبها، كتبها وهو متأكد أنها ستُكلفه حياته وأنها كلمته الأخيرة قبل أن تخترق الرصاصة صدره.

الشعر العمل، والعمل الشعر

بمعنى أدق: الشعر هنا ليس بديلًا عن موقف وليس بديلًا عن فعل، ولا يقوله الشاعر لأنه عاجز بنفسه عن أن يُضحِّي.

إنما قول الشعر نفسه هنا تضحية بالنفس، أو لا بدَّ أن يكون تضحية بالنفس تمامًا مثل الفدائي الذي يُمسك المدفع ويخوض القتال مؤمنًا أنه ميت لا محالة وأن نجاته هي

الشذوذ. هذا العمل الفدائي تمامًا مثل العمل الذي قام به «جيفارا» في جبال بوليفيا، هو في حد ذاته «شعر» أو هو في الحقيقة «العمل–الشعر»، ولذلك فإن فاعليته خطيرة، واستشهاد الفدائي بهذه الصورة يُمثِّل أرقى مستوى شعري يصل إليه العمل، ولهذا يدفع العشرات والمئات للانخراط في سلك المقاومة والاستشهاد.

كذلك لا بدَّ أن يكون شعر المقاومة شعرًا ليس بديلًا عن خوض القتال أو الاستشهاد، وإنما يستشهد الشاعر في قصيدته حقيقة، يموت شعرًا، لا يُخيَّل إليه مثلًا أنه يموت أو يحاول تقمُّص روح المقاتل أو المُستشهِد، إنما فعلًا يستشهد ويقول الكلمة باعتبارها آخر كلماته. هنا فقط يرتفع «الشعر–العمل» إلى نفس مستوى «العمل–الشعر». بحيث يُصبح للكلمة نفس فاعلية استشهاد الفدائي، بل في الحقيقة أكثر؛ فرغم تساويهما في المقام الإنساني الأرقى إلا أن «للشعر–العمل» سحرًا وفاعلية تفوق «العمل–الشعر»، ذلك السحر الذي جعل من الشعر شعرًا وخصَّ الفن بكل تلك القدرة والفاعلية التي لا نزال عاجزين عن تفسيرها.

قضية حياة أو موت

شعراؤنا إذن — كل شعرائنا في الحقيقة — لم يَصِلوا بعدُ إلى هذا المستوى، وكُتَّابنا — كل كتابنا في الحقيقة — قصصهم كلها قصص وحكايات، الحرفة عندهم هي في المقام الأول. ومهما تبايَن مستواهم الفني واختلَف فهو لا يَزال في حدود نطاق الحِرفة، المعارك الصغيرة حول الجديد والقديم، وتيار الوعي واللاوعي، ومَن أحسن مِن مَن، ومَن هو العميد في الأدب والعميد في المسرح، ومن أمير الشعراء؟ كلها معارك واهتمامات أهل المِهنة أو الصنعة، والحقيقة أنهم في هذا ليسوا خارجين عن العرف السائد، فهذا هو الوضع في معظم بلدان العالم، وهذا هو الوضع في معظم الكُتاب والشعراء في كل مكان. ولكن الأمر أبدًا لم يخلُ ولن يخلو من كاتب أو من شاعر لم يتَّخذ الكتابة مهنة؛ ذلك أنها ليست في الحقيقة مهنة، إلا إذا كان الاستشهاد مهنة أو التضحية بالذات صنعة.

إنها أصلًا رسالة هدفها الدائم تغيير الحياة كي تتلاءم مع رؤية الكاتب أو الشاعر وقوانين كونه الخاص، إنها أصلًا قضية حياة أو موت بالنسبة إليه، إما أن «يفعل» بالكتابة شيئًا و«يُغيِّر» من عالَم جاء ليَختلِف معه، ولو ليُغيِّر من نظرته إلى الجمال، إما أن يفعل هذا أو يموت. بل لكي يفعله لا بدَّ أن يموت، فما تغيَّر شيء في الدنيا من تلقاء ذاته ولا باقتراح. إنَّ الأشياء لا تتغيَّر إلا بمعركة، إلا أن يأخذ رسالته (حتى لو كانت إضحاك الناس) جدًّا لا هزل فيه، ولو وصَل الأمر حدَّ استشهادِه كي يُضحك الناس.

وهنا لا أعود لموضوع ميشيما ولا حتى لليابان، هنا أعود إلى حيث بدأت، إلى العالم الآخر، والكائن الآسيوي الآخر، وقد كنتُ بدأتُ رحلتي معه بالتساؤل: لماذا هو هكذا ذلك الإنسان؟ لماذا هو قادر على التضحية بنفسه إلى تلك الدرجة؟ لماذا يَقبل بسعادة أن يقوم بدور اللغم ويُحيط نفسه بالديناميت ليَنسف الحصن الأمريكي ويَنسِف روحه معه؟ لماذا كانوا بالعشرات يُلقون بأنفسهم أمام الدبابات في كوريا ليَمنعوا بجُثَثهم وتراكُمها تَقدُّم الدبابات؟ لماذا كان الرجل من جيش اليابان الفاشي يَقتُل أهله وأحباءه حتى يذهب ويُحارب دون احتمال أن يدفعه تعلُّق بهم إلى التردُّد أو النكوص؟

مبدئيًّا أقول إني لا أومن أبدًا أنَّ هناك شعوبًا أشجع من شعوب. قطعًا هناك أفراد أشجع من أفراد، ولكن الشعوب ككل لا تَختلِف في درجة شجاعتها أو في طاقتها على التضحية أو قدرتها على حبِّ الأرض والوطن.

إنَّ الحياة هي الأخرى كالشِّعر أو الفن، هناك الحياة تَصدُق مع الحياة، وهناك الحياة التي تشبه الكتابة المصوغة من كلام في كلام، هناك الحياة الشعر وهناك الحياة الدردشة والرغي. ولن أُسرعَ بإصدار الأحكام، أنا فقط سأقارن وسأقارن ومنتهى أملي ألا تتحقَّق ظنوني.

لا حياة بغير خطة

السؤال المُلِح: ما هي الحياة؟

إن جوابنا نحن على هذا السؤال يبدأ يُوضِّح إلى أيِّ مدًى نحن نَختلِف. إننا بعد التمعُّن فيه نختصر الطريق ونُجيب: مَن يدري؟ أوَنُحمِّل الإجابة كل همومنا وشكوانا ونقول: إنها خدعة، إنها دنيا فانية، إنها حلم وسراب، وأبدًا لن نظفر بجواب بسيط لهذا السؤال البسيط؟

من آسيا يأتيك الجواب: الحياة فترة محدودة من الزمن يَقضي فيها الشخص ثلثَها على الأقل ليَنضج ويتعلَّم، وثلثها لينتج، وثلثها نائمًا أو مريضًا أو يُعاني من العجز والشيخوخة.

إنَّ هذه الإجابة على بساطتها تُحدِّد على الفور ليس فقط معنى الحياة، وإنما موقف الإنسان منها بل وأهدافه ووسائله أيضًا.

إنها تعني أننا لا نَعثُر على حياتنا صدفة ولا نُضيِّعها صدفة، وإنما بإرادتنا نوجدها وبإرادتنا نحياها. بإرادتنا تكون غنية الغنى كله، وبإرادتنا أيضًا نُفقِرها كل الفقر.



فتاة تعمل كوافيرة.

الهدف الحياة، والإرادة وسيلة التحقيق، والخطوة المنطقية التالية هي تحديد مسلك الإرادة، أو معنى أبسط: الخطة. لا حياةَ إلا بخطة، ولا طريق للوصول لأتفه الأهداف إلا بخطة؛ لهذا فقد روَّعني حقًّا أن الأمور لا تجري في هذا الجزء من العالم اعتباطًا، ليس على مستوى الأمم إنما حتى على مستوى الأفراد. بل إن التخطيط للآن هناك ينبع أصلًا من جنوح الفرد للتخطيط لحياته.

وكان أول لقائي مع هذا التخطيط الفردي مع فتاة في الثامنة والعِشرين سألتُها سؤالًا عابرًا عن عملها، وجر السؤال إلى سؤال، وإذا بي أظفر بحكاية غريبة ظللتُ أُقلِّبها بين يدي لا أكاد أصدق. الفتاة كانت منذ اثنَي عشر عامًا تلميذة في المدرسة، وكان لهم جارة في البيت تَملِك محل «كوافير» للسيدات، وكانت أمها ترسلها في أوقات فراغها من الاستذكار لتعمل في المحل لقاء بضع «ينات». كانت وقتها في السادسة عشر من عمرها، ولقد أعجبها جو العمل ووظيفة الحلاقة والمركز المرموق الذي تتمتَّع به صاحبته إلى

درجة أنها قرَّرَت أن تُصبح هي نفسها صاحبة محلٍّ كوافير. وأن تحلم فتاة مثلها بشيء كهذا مسألة طبيعية تحدث في أي مكان، أما غير الطبيعي فهو أنه منذ تلك السن الصغيرة التي لا تُجيد الفتاة فيها غير التفكير في الحب وعالم الشباب، بدأت صاحبتنا ترسم «خطة» لتحقيق هذا الهدف، وبالحساب الدقيق أدركت أنها بحاجة إلى اثنَي عشر عامًا من العمل المستمر والتوفير لكي تحقق خطتها.

أما العجيب حقًّا فهو أن تُنفِّذ الخطة بإحكام شديد، وأن يتوفَّر لها بعد هذه السنين الطويلة المبلغ اللازم لامتلاك محل وتجهيزه، مبلغ لا يقلُّ عن عشرة آلاف جنيه بأي حال. وأن تُنهي كلامها لي قائلة: وفي أول يناير ٧١ بالضبط سيكون قد تمَّ تجهيز كل شيء وسيُفتَح المحل.

ظننتها أول الأمر فتاة غير عادية، ولكني ما قابلتُ بعدها أحدًا إلا وأدركت أن مركزه الحالي أو نوع الدراسة الذي يقوم به أو ما وصل إليه لم يكن أبدًا إلا وليد خطة دقيقة وضعها مسبقًا ونفَّذها بإصرار غريب، ولم يَحِد عنها لأي سبب من الأسباب. إن الصدفة والتلقائية لا تلعب أي دور في حياة الفرد الياباني. صحيح قد تَضيع كل تدبيراته نتيجة أمر لا دخل له فيه، ولكنه هو عليه أن يُدبِّر.

حساب الزمن

كثيرًا ما ساءلتُ نفسي: لماذا لا يبدو للزمن في بلادنا هنا أيَّة أهمية؟ لماذا يسير كل شيء كما لو كنا خارج نطاق الزمن، كأننا إلى الأبد سنحيا، كأن الزمن لن يفاجئنا وينقضَّ علينا يومًا ويغتالنا اغتيالًا؟ في اليابان وجدت الجواب. كأن كل شيء يؤدِّي إلى آخر. ما دام هدف الحياة وتعريفها قائمًا في أذهاننا فمِن العبث أن نضع للحياة خطة، وما دامت ليست هناك خطة فلا أهمية للزمن. إنَّ الزمن لا يلحُّ على الإنسان إلا إذا كان يَحتاجه، والخطة أي خطة معناها إدخال الزمن كعامل أول في نجاحها، خطة بلا زمن محدَّد لإنهائها لا فائدة منها.

وإدخال حساب الزمن في تحقيق الأهداف يجعل لكل ثانية ودقيقة أهمية عُظمى، هذا هو السر إذن في هذا العدد الكبير من الساعات التي واجهَتْني من لحظة وضعت أقدامي في المطار. من باب الدخول عبر إجراءات الصحة والجوازات إلى باب الخروج كانت خمسة صفوف من الساعات قد أرغمتْني إرغامًا على الإحساس بكل دقيقة تَمضي. وهي ليسَت ساعات لها عقارب وإنما ساعات بالأرقام تُحدِّد لك الوقت بعدِّ الدقائق وكتابتها.

سائق التاكسي كان هو الآخر يَضع الساعة أمامه فوق «تابلوه» العربة. التليفزيون وأنا أتفرَّج عليه، خاصة في الصباح، يكتب لك الوقت بالثانية في زاوية شاشة العرض حتى لا تنسى نفسك وأنت تتفرَّج. وجنبًا إلى جنب مع الزمن يأتي الاقتصاد في كل شيء. المحافظة على الزمن هي المحافظة على ثروة لا تراها العين، والاقتصاد والتقشف هما المحافظة على الثروة التي تراها العين.

ركيزة النقود



فتاة وجودية.

إنها حياة قائمة على خطة، الزمن ركيزتها الأولى والنقود ركيزتها الثانية، ومثلما لا نجاح لخطة بغير زمن محدَّد فلا نجاح لها بغير نقود. والنقود لا تَهبِط من السماء. أنا من جهدي أُدبِّرها، وخطتي لا يُمكِن تمويلها بقروض، إنما بتوفيري فقط وتدبيري أجمع لها

المال. وما أغرب وأكثر الوسائل التي يَتبعُها اليابانيون لإحكام التوفير حتى إن لديهم في كل شارع كشكًا فيه موظَّف واحد هو البنك المحلي الذي تُودِع فيه كل ربة بيت إيراد الأسرة كل شهر، وتأخذ من الموظَّف كل يوم أو يومين ما تحتاج لإنفاقه خلال هذه الفترة، وقد ذكَر لي أحد الاقتصاديين هناك أنه بجانب صندوق التوفير الذي يقوم به هذا الفرع من البنوك فإنها تُؤدِّي إلى ربح غير منظور آخر. فمجرَّد إيداع المرتَّبات والإيرادات في البنك، حتى ولو أنفق المودع مرتَّبه كله بنهاية الشهر، فإن إيداع مرتبات العاملين جميعًا (وهم ٦٠ مليونًا من مجموع الشعب البالغ عدده ١٠٠ مليون، وهي نسبة عالية مخيفة في حد ذاتها)، إيداع مرتبات كل هؤلاء العاملين في البنوك بدلًا من حمل النقود في المحافظ أو الدواليب يؤدِّي إلى تشغيل لهذه النقود أثناء الشهر — أو على الأقل نسبة كبيرة منها — يؤدِّي إلى ربحٍ لا يقلُّ عن اثني عشر مليون جنية مصري كل شهر؛ أي حوالي ١٤٤ مليون جنيه زيادة في الدخل القومي. مبلغ ضخم كهذا يربحونه بفكرة بسيطة كهذه، بسيطة ولكنها خارقة؛ إذ هي لا يُمكن أن تخطر إلا ببال يشغله أمر المحافظة على دخله وتنميته إلى أقصى حد.

ليس في الأمر معجزة

وأرجو — رغم كل هذا — ألا يشعر أحد أني أتكلم عن اليابان وكأني أتكلَّم عن معجزة، فليس في اليابان معجزة، وليس لدينا نحن أيضًا نقص في المعجزات. وكثيرون سيقولون إن مردَّ كل ما ذكرته إلى ارتفاع الدخل القومي، ومردُّ هذا أيضًا إلى رءوس الأموال الأمريكية التي تدفَّقت عليها بعد الحرب، ثم إعفائها من نفقات الجيش والتسلُّح التي تمتص ميزانيات الدول الأخرى. ولكني أقول لهؤلاء — مع احترامي لكل تلك العوامل — إنَّ قصْر السبب على هذا هروب من مواجهة الحقيقة، وآن الأوان أن نتعلَّم مواجهة الحقائق. إنَّ الجهد البشري هو الرأسمال الأول لأيِّ شعب، ومهما قلَّتِ الموارد فإن تنظيم هذا الجهد وتوظيفه هو الوسيلة الأولى لإقامة أي دولة وأي نظام وأي ثورة أو صناعة.

ولقد كان مُمكنًا أن تختار اليابان طرقًا أخرى كثيرة للخروج من مجاعة ما بعد الحرب وما حاقَ بها مِن خراب، وكان مُمكنا أن تَفشل، ولأنَّها لم تفشل فلا بدَّ أن الأسلوب الذي واجهت به هزمتها العسكرية ودمارها الاقتصادي كان صوابًا.

لا بدَّ أنهم هناك أدركوا أن اليابان مثلها مثل أي بلد من بلاد العالم لكي تُقيم صناعة حديثة لا بدَّ أن تُفكِّر كثيرًا وبذكاء شديد؛ فالصناعة ليست هدفًا في حدِّ ذاته إنما هي وسيلة أكثر فاعلية من الزراعة أو الصيد مثلًا في ازدهار الاقتصاد القومي. وخير ألا

تقوم صناعة بالمرة إذا كانت ستَفشَل أو ستُؤدِّي إلى انخفاض الدخل. ولأنَّ اليابان ليست في فراغ، فإن الصناعة التي ستَنشأ فيها لن تقوم في فراغ وإنما ستكون قائمة داخل عالم فيه دول سبقَتْها ودُوَل أعلى، وفيه صناعات راسخة الدعائم وغير قابلة للمنافَسة.

من أين تَنفُذ اليابان إذن إلى الوجود الصناعي العالَمي في عالم مُزدحِم بالموجودين؟ كان ممكنًا أن تفعل اليابان مثل الاتحاد السوفييتي وتبدأ بإنشاء الصناعات الثقيلة ثم الخفيفة وهكذا. ولكن إنشاء الصناعات الثقيلة في عالم اليوم لا يُمكن أن تقوم به شركات هدفها الربح، بل حتَّى لا تستطيع الدولة نفسها أن تقوم بتمويله. ثم إنَّ الصناعة الحديثة تَعتمِد على «الأوتوميشين» أو الاستغناء عن العمال وهذا شيء لا يُلائمها. المطلوب إذن هو التركيز أولًا على اكتشاف نوع من الصناعة تنفرد به اليابان وتُتقنُه حتى يُصبحَ سلعة عالَمية مطلوبة ومضمونة، وبالأموال العائدة من تصدير هذه الصناعة تبدأ اليابان تُموِّل صناعاتها الثقيلة وكل الصناعات المُترتِّبة عليها.

صناعة الترانزستور

واكتشفت اليابان الترانزستور، ليس مهمًّا أن يكون مُكتشِف الترانزستور يابانيًّا أو أوروبيًّا؛ إذ المُهم أن اليابان اكتشفَت في الاكتشاف أنه الصناعة التي بالضبط تحتاجها. إذن ما هو الترانزستور؟ على رأي صديقنا الأستاذ محمد طاهر هو حِفنة من الصفيح والنحاس لا يزيد ثمنها على ريال، كل ما في الأمر أنه بالجهد البشري الصبور تتحوَّل هذه الحِفنة بعد ساعات قليلة وعلى يد عامل واحد إلى جهاز ثمنه عشرون أو ثلاثون ضعفًا لثمن المادة الخام.

إنها إذن الصناعة الأمثل؛ فاليد العاملة الدقيقة متوفِّرة، والأجهزة لا تحتاج إلى معادن كثيرة؛ فاليابان ليس فيها أي مادة من مواد الصناعة الخام، لا فحمَ، لا حديد، لا بترول، لا نحاس، ولا شيء بالمرة. إنها تستورد كل المواد الخام، بل حتَّى تستورد الطعام نفسه. ليس في اليابان إلا شعب كثير تضيق به الجزر الخالية من أي شيء سوى السمكِ وبضع مساحات محدودة تَصلُح للزراعة.

ولم يكن اختيار الترانزستور لكل ما ذكرتُه فقط وإنما كان لعامل آخر شديد الأهمية. إنه صناعة نسائية يستلزم كل صبر المرأة ودقة أصابعها ودأبها على العمل الدقيق، ذلك الذي يتمثَّل في هوايتها لشغل الإبرة والتريكو؛ لهذا فلن يكون الترانزستور صناعة ناجِحة فقط ولكنه، وهذا هو الأهم، سيُؤدِّي دوره في نقل نصف المجتمع الياباني من موقع العالة

على الإنتاج إلى موقع تُصبح فيه المرأة اليابانية التي بقيَت حتى ذلك الوقت لا عمل لها إلا إرضاء الرجل وخدمته وإحالة البيت الصغير إلى جنة يَخلد إليها «السيد» المُنتِج بعد يومه الحافل الطويل، تُصبح فيه مصدرًا أساسيًّا من مصادر الطاقة الإنتاجية. صناعة تجعل الحياة تدبُّ في نصف الأمة المشلول، تَعتدِل به الحياة.

وهكذا — فجأة — تدفَّق على العالم طوفان الترانزستور مطلوبًا ومرغوبًا ومنتشرًا يكتسح أمامه كل أجهزة اللاسلكي التي أنتجتْها أوروبا وأمريكا، والتي كان لا يَقتنيها إلا القادرون؛ بحيث لم يَخلُق فقط أسواقًا وإنما خلق للراديو نفسه جمهورًا هائل الضخامة والحجم.

في قريتنا لم يكن عدد أجهزة الراديو القديمة يَزيد على العشرة بأي حال. في قريتنا وحدها، واحدة من أربعة آلاف قرية مصرية في دولة واحدة من عشرات ومئات الدول، أصبَح فيها ما لا يقلُّ عن الأربعمائة جهاز ترانزستور.

وربحت أيضًا ٣٠ مليون مُصنِّع بشري من عقلية القرون الوسطى إلى القرن العشرين، جئن ووجدْن وبما حدث لهنَّ من تغيير بدأن يُحدِّثن عن التغيير، وبالوجه الآخر المُظلِم وقد أضاء، بالوجهَين معًا قفز المُجتمع كله إلى أمام قفزة لم يكن يحلم بها هو نفسه.

هكذا بدأت تُرسي دعائم مجتمعها الصناعي الكامل. من صناعة الصلب إلى صناعة الكيماويات. وتبنِّيها لا لمجرَّد أن تفخر بأنها لديها هذه الصناعة أو تلك وإنما بهدف محدَّد مسبق؛ أن تقوم هذه الصناعة أو تلك لتكون الأولى في العالم، لترثَ كل ما وصلت إليه الصناعة في الغرب أو الشرق، ونُضيف إليها شيئًا هامًّا جدًّا يُميز كل منتَجات اليابان؛ ألا وهو — مثل ديانة الشرق — قربُها وتلازمها مع حياة الناس العادية ومُتطلباتهم وبأزهد ثمن. وإنه لمُذهل حقًّا أن تُصبح اليابان ثاني دولة في العالم في صناعة السيارات، وأول دولة في بناء ناقلات البترول. حتى سويسرا التي لم يجرؤ على منافستها أحد، ساعات اليابان تكتسح ساعاتها من السوق وتُنافسُها حتى في سويسرا نفسها.

والغريب أن آخر من يستهلك الصناعات اليابانية هم اليابانيون أنفسهم. وأنَّ عدد من يَملكون سيارات أقل من مثيله في أي بلد آخر، كذلك الكاميرات والريكوردارات.

كثيرًا ما راودَني ذلك التعريف الذي استوحيتُه من مظاهر التقشُّف التي تحفل بها حياة المواطن الياباني العامل. إنَّ الفرق بيننا أنهم ناس طموحهم الأكبر أن يُنتجوا

السيارة من لا شيء لا أن يَمتلكوها، بينما نحن طموحنا الأول أن نمتلك السيارة، وبالذات حبَّذا لو كانت من إنتاج غيرنا.

والصناعة أولًا وأخيرًا إنسان.

والإنسان أولًا وأخيرًا موقف من الحياة.

وموقف الإنسان الآسيوي — بشكل عام — من الحياة موقف جاد.

وكارثتنا الحقيقية أن موقف إنساننا من الحياة موقف هازل.

الفصل الخامس

قارة المجتمعات

لغز آسيا سهل الحل

شعبُنا حقيقة غريبة لم أكن أتصوَّرها. كنتُ أناقش ذات يوم في لندن أخصائيًّا كبيرًا في اختبارات الذكاء بمُستشفى «هامر سميث» حيث كان طفل مصري يُفحص من إصابة، وحين أُجريَت عليه اختبارات الذكاء كانت نسبة درجاته أعلى بكثير من المُعتاد في هذه السن، وحسبتُ الطفل نابغة أو فلتة، ولكني فوجئتُ بالأخصائي يقول إنَّ هذا ليس أول طفل من بلادكم أُجري له الاختبار. هذا في الواقع هو الطفل العاشر، وهو ليس أول الحاصلين على هذه النسبة، إنه السابع، واعتمادًا على خبرتي أستطيع أن أقول إن هذه ربما أعلى نسبة للذكاء بين أطفال العالم.

وأحسستُ بفرحة حقيقية، كان كلامه كالخبر المفرح المفاجئ. وقبل أن أُعلِّق كان هو يهزُّ رأسه آسفًا ويقول: ولكن الغريب أن أطفالكم يظلُّون كذلك إلى حوالي الخامسة ثم تبدأ نسبة ذكائهم في الهبوط، بينما تأخذ نسبة قرنائهم الإنجليز أو غيرهم في الارتفاع بحيث يتفوَّقون عليهم بمراحل.

وتراجعَت فرحتي واحترت، واحتار معي هو الآخر. ولكننا بالنقاش وصلنا إلى ما يُمكن أن يكون السبب؛ فحتى هذه السن يكون ذكاء الطفل مستمدًّا من مخزونه الوراثي من الذكاء، ولكنه بعدها يعتمد ذكاؤه على مدى تفاعُل ذكائه الموروث مع بيئته، وعلى مدى أثر البيئة في تنمية الذكاء، تمامًا كأي عضلة تُولد بقوة معيَّنة ولكن قوتها تبدأ تعتمد على التداريب والتمارين التي تزاولها.

أنحن إذن نولد أذكى؟

هذه حقيقة.

الحقيقة الأخرى لمستُها في تجوالي بين حضارات آسيا، كثيرًا ما سمعتُ ذلك التعبير يرنُّ في أذني: ألا تعرف أنك من مصر موطن أولى الحضارات؟

وهذه حقيقة أخرى!

أول مجتمع ذكي عرفه الإنسان

والمسألة أبدًا بعد هذا ليست صدفة، وليس معنى زوال الحضارة عن شعب وتسليمها لشعب آخَر أنه يرتدُّ إلى الوراء مثلًا أو يبدأ يُصبح أقل حضارة. إن زوال معالم الحضارة عن البلاد لا يعني أبدًا زوالها من الإنسان نفسه. وإذن كان الذكاء المصري هو الذي أحدث في العالم القديم ما يُشبه ثورة الصناعة والتكنولوجيا في العصر الحديث باكتشافه لأول ثورة في العالم وأول تكنولوجيا؛ الزراعة وآلات الزراعة. إذ كان ذكاؤنا هو أول من بدأ يعمل الذكاء البشري، فمعنى هذا أنه الآن أعرق ذكاء وأخصبُه وأطوله عمرًا.

كل ما في الأمر أن الذكاء كي يُصبح فعالًا لا يكفي أن يكون صفة موروثة أو مُكتسَبة، إنما التحضُّر والتقدُّم يَصنعه الذكاء الجماعي لا التفوق الفردي. نحن إذن أول «مجتمع» ذكي عرفه الإنسان. كل ما في الأمر أنَّ عمر هذا المجتمع الذكي لم يَدُم طويلًا، وما لبث النظام الذي كان يُتيح استثمار الذكاء جماعيًّا أن توقَّف عن التطور وانفرط عقده، وأصبحنا ومنذ تلك اللحظة وإلى الآن أفرادًا أذكياء، تمامًا في مجتمع لم يَنجح في تجميع هذا الذكاء واستثماره، أو بالأصحِّ مجتمع غبي ومُتخلِّف. أطفالنا يُولَدون عباقرة بالقياس إلى أطفال العالم، ومفروض أن يتسلَّمهم نظام حياة يُنمِّي هذا الذكاء الفردي ويُربيه ويُدربه على تكوين مجتمع ذكي يعمل طوال الوقت، ويُطوِّر نفسه بحيث يستطيع باستمرار أن يَستوعِب ذكاء أفراده، وبذكائهم الجماعي يحيا ويتقدم ويخترع وينتج. ولكن، لأنَّ عكس هذا ربما هو الذي يحدث، بحيث يجد الفرد الذكي نفسه في حالة صدام مع مجتمع قاصر عن استيعاب ذكائه؛ حيث يتحوَّل بذكائه لخدمة ذاته أو بالأصحِّ الدفاع عن ذاته وهكذا.

ميزة الذكاء الآسيوي

ولم أَلمَس هذه الحقيقة الغريبة بقدر ما لمستُها في آسيا، أن الفرد المصري أذكى، ولكن ميزة الذكاء الآسيوي المتوسط أنه موجود في مجتمع ذكي، مجتمع يعرف قيمة الذكاء ويُهيِّئ له كل السبل، ويَعرف كيف يخلق النظام الذي يُتيح لأذكياء كثيرين أن يعملوا

معًا، أن يحدث هذا التعاون الذكائي الكامل. ذلك الذي يَصنع في الحقيقة أي حضارة أو صناعة أو حتى فن، وبالتالي يصنع الإنسان ويُدرِّبه ليكون أذكى وأذكى، بحيث يعوض بالإرادة ما افتقده بالوراثة، بحيث يُصبح ذكاء المرء محسوبًا له، وليس كالحال هنا محسوبًا عليه، بحيث يكتشف في كل فرد مكمَنَ طاقته وتفرده وقدراته، وفي مكانها الصحيح يُجيد استخدامها.

وذلك في رأيي سرُّ أي مجتمع ناجح، سر أي تقدم علمي أو صناعي أو حضاري أو ثقافي وفني، خاصة ونحن لم نَعُد في عصر الفلتات الفردية. نحن في عصر المجتمعات الذكية. وكما بدأ العالم يَنقسِم إلى أغنياء وفقراء، فكذلك بدأ ينقسم إلى مجتمعات أذكى ومجتمعات أقل ذكاء أو أغبى، والهُوَّة بينها أيضًا تتَّسع؛ فالذكاء ثروة ذكاء، حتى القوة الفيصل فيها هو الذكاء. والجيش الأقوى اليوم هو الجيش الأذكى.

بل إن التعليم ذاته لا يحلُّ المشكلة.

وجيش الفيتناميين مكون من فلاحين بعضهم أُمي، ومع ذلك ولأنه الأذكى فإنَّ فِرَق الجيش الأمريكي الأكثر تعليمًا تتساقَط في كمائنه كما يتساقط الذباب.

ولكن الذكاء وحده ليس كل شيء.

فبجانب الذكاء لا بدَّ من أشياء أخرى.

فلكي تلوي عنق التاريخ لا بدَّ من عمل شاق.

والتصدي للعمل الشاق طُموح إنساني مشروع.

ولكن الطموح في حاجة إلى قوة وقدرة ورصيد.

أنا لم أكن بالطبع أنوي اكتشاف قارة، أو حتى اكتشاف طريقة مُختلفة للحياة، كان كل طموحي أن أنجح في اكتشاف سرِّ الإنسان يلوي عنق التاريخ ويُقاوم. والأنظمة في آسيا تختلف من الشيوعية وهي في قمتها في الصين مثلًا، إلى الرأسمالية في توجيهها في اليابان، ولكن مقاومة الإنسان لا ترتبط بالنظام الذي يعيش في ظله؛ إذ إنه إذا أراد المقاومة يقاوم سواء قاوم النظام الذي يحيا في ظله ليعيش أو تضامَنَ مع النظام ليقاوم شرًّا خارجيًّا يُهدِّد بقاءه. إن الأصل هو الإنسان. صحيح أن للنظام الأثر الأكبر في نتيجة مقاومته، ولكن ما فائدة النظام إذا قاوم الإنسان وحده بلا إنسان؟ الأصل هو الإنسان.

وآسيا بلاد شاسعة وأهلها كثيرون، وليس كل شعب فيها يَلوي عنق التاريخ ويُقاوم، ويعيش كل نظام فيها متحالفًا مع الإنسان في مقاومته. ولكن الشيء الذي لا يمكن إنكاره

أن المقاومة هناك مُعديَة، وأنها تتكاثَر، وأنها خطيرة إلى درجة أننا سنجد أمريكا بعد قليل إذا أرادت أن تستمر تعمل ضد الإنسان الآسيوي فعليها أن تُجنِّد الشعب الأمريكي كله وتُسخِّر إمكانياتها الصناعية كلها وتَرصُد كل مخزونها من الرأسمال.



محارب فيتنامي.

والإنسان لا يولد يُقاوِم؛ إنه يولد كالصفحة البيضاء التي يتولى المجتمع ملأها بالمضمون. وحسب المجتمع يصبح الإنسان؛ إذا ولد في مجتمع يُقاوم نشأ مُقاومًا، وإذا ولد في مجتمع راضخ نشأ كذلك. المجتمع القوي المُقاوم إذن هو ذلك الذي يستطيع أن يَصنع من أفراده مجتمعًا قويًّا مقاومًا مثلَما يَصنع المُجتمَع الذكي بأذكيائه.

وهذا هو سرُّ آسيا الأكبر! إنها قارة المجتمعات، مجتمعات مُتباينة متأرجِحة بين القمة والسفْح ولكنَّها باستمرار مجتمعات، حتى التفرُّد والفردية ليست وليدة انِفصال عن المجتمع بقدرِ ما هي وليدة استخدام واستعمال لهذا المجتمع.

وإنسانها جادٌّ؛ لأن مجتمعاتها جادة.

والهند خير مثال على هذا.

فالهند ليست دولة واحدة، إنها قارة بمفردها. وليس هناك ما يُمكِن أن يُسمى بالمجتمع الهندي؛ فهو مجتمع مكوَّن من عديد المجتمَعات، كل لغة تُكوِّن مجتمَعًا، كل دين يُكوِّن آخر، كل طائفة، كل وحدة جغرافية، كل درجة من درجات الفقر أو الغنى. إنَّ الهند على عكسنا تمامًا هنا، فإذا كان مجتمعنا هو مجتمع التوحُّد والتوحيد، فمجتمع الهند هو مجتمع التعدُّد والاختلاف. وقد يظنُّ البعض أن التعدُّد يؤدي إلى مجتمع ضعيف، وأن التوحيد يؤدي إلى مجتمع واحد قوي، ربما العكس هو الصحيح. إنَّ التوحيد التام يؤدِّي إلى فقدان الخصائص المتفرِّدة، نفس الخصائص التي يؤدِّي وجودها وتأكيدها إلى قوة المجتمع الأكبر، في حين أن إلغاءها في سبيل التوحيد يؤدِّي إلى طمس معالم التفرد والامتياز، وبالتالي إلى وحدة كوحدة المتشابهَين، كوحدة الأصفار.

المجتمع الذكي

ولهذا؛ فالمجتمع الذكي لا بدَّ أن يكون نابعًا من وحدات أصغر ومن مجتمَعات صغيرة كثيرة ذكية، وكذلك المجتمَع المُقاوِم هو أيضًا مكوَّن من مجتمعات كثيرة صغيرة مقاومة.

ودائمًا يَكمُن عيب أي مجتمع في هذه النقطة البسيطة المحدَّدة.

تلك المجتمَعات الصغيرة التي منها ينشأ الفرد الواحد ومنها أيضًا وبتلاحُمها ينشأ المجتمع الكبير.

وهنا في بلادنا تستطيع أن تضع يديك على الداء بسهولة. في قُرانا نحن نكون المجتمعات الصغرى هذه وننشأ منها، وبها نُنشئ المجتمع الأكبر. كذلك كانت مدنُنا في العصور الوسطى مكوَّنة من أزقة وحوار تكوِّن حيًّا. والأحياء تكوِّن مدينة، والمدن تكوِّن دولة. في العصر الحديث وحين أحدثت الهجرة الهائلة من القرية إلى المدينة، ومن الزراعة والتجارة إلى الصناعة، فقَد إنساننا القادم قدرته على تكوين المجتمَعات الأصغر، امتلأت مدنُنا بآلاف العائلات أو حتى الأفراد الذين لا يَربطهم رابط ولا يُسئلون أمام مجموعة ولا يُحسُّون بالانتماء. ومن السهل أن يبدأ الإنسان يفقد كثيرًا من خصائصه الأصيلة حين ينفرط عقده ويُصبح وحده يفكر، ووحده يستهدف، ووحده يصنع لنفسه القيم التي تلائمه. إن من يفقد الانتماء يفقد الأصالة، والفرد حين يفقد خصائص مجتمعه الأصغر يفقد تمامًا خصائص المجتمع الأكبر.

هكذا نشأ لدينا المُجتمع العريض الفريد في نوعه، المكوَّن من أفراد لا يجمعهم إلا العمل مرةً، أو القهوة، أو أحيانًا السكن في مكان واحد. يُنجبون أبناءً يُنشئون أفرادًا هم الآخرون. والنتيجة أنَّ الكتلة بدلًا من أن تكون بناءً قويًّا تتفتَّت وتتسطَّح، ويصبح في مكان البناء سطح من الرمال الصغيرة المتراكمة. بل حتى الأشكال الحديثة للمجتمع مثل النقابات والنوادي والجمعيات نشأت في ظلِّ استعمارٍ لوَّثَها عن عمد، وأخمد فيها الروح، وتحوَّلت من مجتمعات جديدة مفروض أن تكون أداة الوجود والمقاومة، إلى أشكال من التجمُّع وظيفتُها كبْح جماح أفرادها واحتواؤهم وتقييد حركتهم وشلُّها ليس إلا.

الداء واضح وظاهر

الداء واضح وظاهر، لا يُمكِن أن يوجد شعب وحدتُه الفرد. إنَّ الشعب ليوجد — أي شعب — وحدته مجتمع أصغر. وما لم يكن أفراده منظَّمين بطريقة أو بأخرى في هذه المجتمَعات الأصغر، فالنتيجة أن شعبًا كهذا ممكن أن يكون تعداده مائة مليون في حين أن حاصل قوته تقلُّ بكثير جدًّا عن مجموعه، بينما شعب آخر تعدادُه عشرة ملايين من الأفراد يكونون مجتمعاتهم المختارة الأصغر لتُكوِّن بدورها المجتمع الواحد الأكبر، تكون حاصل قوته أكثر بكثير جدًّا من الملايين العشرة؛ فالعمل كمُجتمَع لا تكون نتيجته حاصل جمع مجهودات أفراده، ولكن العمل كجماعة يكاد يكون حاصل ضرب مجهود الواحد في الآخرين، وليس حاصل جمع أو أحيانًا قسمة.

الداء واضح وظاهر؛ الدولة في المجتمعات الأخرى نشأت كظاهرة اجتماعية لتنظيم العلاقة بين المجتمَعات الأصغر، الدولة عندنا نشأت من الخارج، من المستعمر، من أصول لا علاقة لها بالشعب أو وحداته، نشأت لتفتت الشعب في الحقيقة وتَكبته. إنَّ الروتين والقوانين واللوائح التي تحفل بها حياتنا ولا يوجد لها نظير في أي بلاد أخرى سببه أن الدول جاءت أجنبية، كما كان العرش أجنبيًّا، وأنها تعامل الشعب كما لو كان عصابة من اللصوص وقُطَّاع الطرق. وقد كان هدفها على الدوام أيضًا أن تحول بين الشعب وبين تحوله إلى مجتمع، أي تحول دون قيام التنظيم والمجتمَعات الأصغر، ليبقى الفرد من أبناء الشعب وحده بمفرده أمام جهاز الدولة الرهيب.

كيف بإمكان مجتمع كهذا أن تتفجَّر طاقاته ويعمل ويُنتج وينمو، والدولة تتولى بتْر أي صلات تنشأ داخله لتحوله إلى جسد حي كبير مُنتِج، وتضع ما شاء لها من قوانين كلها ليس فيها قانون واحد يحمي المواطن، إنما كلها قوانين لحماية العقار أو الأرض أو

المِلكية أو السيادة. كلها قوانين ليس هدفها فقط تفتيت الشعب وإنما أيضًا إحالة أفراده إلى عبيد فرادى؟



فلاح مصري.

درس تعلمته

والحقيقة أننا لو كنا فطنًّا إلى خطورة الدولة التي ورثناها عن المِلكية والاستعمار، وخطورة دورها ولوائحها ونظْمها والعقلية التي تُمثِّلها وتقودها، لاكتشفنا ومن أول وهلة أن ذلك الجهاز أخطر علينا من كل أعدائنا الخارجيين. وكان لا بدَّ حينذاك أن ننشئ أول ما ننشئ دولة شعبية أخرى، وأن نتَّجه — أول ما نتَّجه — إلى تكوين التنظيمات والمجتمَعات الأصغر، تلك التي تُحيل المواطن من صفر إلى عدد دائم التكاثُر والتضاعُف.

واليوم نحن أشد ما نكون حاجة إلى هذا كله.

فنحن مثلًا نتَّجه إلى إعادة النظر في أمر التعليم. وبقليل من الجهد سنَكتشِف أن نظام التعليم وضعتْه عقلية الدولة الاستعمارية وأننا لكي نُصلح التعليم لا بدَّ أيضًا أن نُصلح الصحة والثقافة والزراعة والقضاء والبوليس والنقابات؛ فكلُّها من وضع ورعاية عقلية واحدة. ولا يمكن أن نصلح التعليم بمفرده؛ إذ لا يُمكن إصلاح عربة واحدة من عربات قطارٍ خَرِب؛ إذ نحن مهما أتقنا إصلاحها فإنها دائمًا مربوطة إلى مرافق أخرى تشدُّها إلى الخلف. لكي نُصلِح التعليم لا بدَّ أن نصلح نظام الدولة أولًا، ولكي نُصلح الدولة لا بدَّ أن نغيِّرها من دولة ورثناها وكانت حربًا علينا إلى دولة لصالحنا نخلقها وتكون عونًا لنا. من دولةٍ الشعب في نظرها غير مؤتمَن حتَّى على مصيره ومصالحه، إلى دولةٍ الشعب فيها هو الأمين على الدولة نفسها. إن المجتمع الحديث الذكي القوي ليس أبدًا مجتمع الجهاز الحكومي الحديث، ولكنه مجتمعٌ يُمثِّل فيه الشعب مقدمة الصورة، مجتمعُ الشعبِ المنظم المسئول الذي ليس أداةً في يد الدولة وإنما الدولة هي الأداة في يده. والقوانين لا تصدر دائمًا لتُعرقِل حركته وإنما هو الذي يتولى إصدار القوانين التي تُسهِّل حياته وتحميها.

الدرس الذي تعلمتُه من آسيا أن المعجزة، أن تحقيق المعجزة — أي معجزة — ليس أبدًا مسألة مستحيلة. هي على الدوام مُمكنة. أَوجِدِ الشعب، توجد المعجزة. إذا حضر حضرت وإذا غاب غابت. إذا حمَّلتَه المسئولية، أي مسئولية، ولو كانت قهر إمبراطورية، حمَلها كالعملاق وأنجزها، الذكي القوي، وإذا حجبْتَها عنه تحول إلى متفرج، اللامبالاة شعاره.

ما أغرب هذه الكائنات الهائلة العملاقة؛ الشعوب.

الفصل السادس

عبطاء بالعمد والحساب

أسبوع للحضارة المصرية

تلعب في حياتنا الصدف، هذا صحيح، أما أن تلعب الصدف دورًا في الكتابة عن موضوع فذلك ما لم أحسب له حسابًا قط، وهذا ما قد حدث. والموضوع عن آسيا لا يزال، ولكن المشهد سينتقل فجأة إلى برلين، وإذا كانت معرفتنا بآسيا قد عمَّقت معرفتنا بأنفسنا نحن، فمعرفتنا بأوروبا، وفي حدود موضوعنا أيضًا، بالقطع ستُعمِّق معرفتنا بآسيا، وبالتالي بأنفسنا.

والصدف هي التي جعلتْني، قبل أن أنتهي من الكتابة عن آسيا، أجد نفسي مُجبَرًا على السفر إلى برلين، وبرلين ليسَت هي كل أوروبا، ولكن ألمانيا كانت دائمًا وستكون عُقدة أوروبا، بؤرة أوروبا، عُصارة أوروبا المركزة.

وقد يبدو التسلسُل مُضحكًا، ولكن بالتأكيد يَحمل جانبًا من الحقيقة، فلنُحاول إذن أن نفهم بورة أوروبا وعُقدتها لنفهم آسيا أكثر، وأنفسَنا أكثر وأكثر.

بدأ كل شيء طبيعيًّا للغاية، في بريد الصباح وجدتُ خطابًا من ألمانيا، الخطاب دعوة من «الأكاديمية الإنجيلية» لحضور أسبوع «للحضارة المصرية» يُقام في الأكاديمية وتُلقى فيه محاضَراتٌ عن مصر والعالم العربي، وتُقرأ فيه قصص مصرية مترجمة إلى الألمانية، وشعر، وتُعرَض فيه أفلام عربية، تمَّ هناك لقاء مفتوح مع جمهور برلين، ومقابَلات في التليفزيون والإذاعة ... إلخ، شيء لا يَكاد يُصدَّق. أكاديمية في برلين وكر المخابَرات والدعايات المركزية والألمانية والإسرائيلية وكل مخابرات في الدنيا، تدعونا، وتفعل من أجلنا كل هذا وعلى حسابها. شيء لا يكاد يُصدَّق، ولكنه الحقيقة، الخطاب واضح وصريح.

رحتُ أفكر، إنها فرصة لأدبنا وحضارتنا وقضيتنا من الحمق أن نَفقِدها. لقد أغلقت ألمانيا الغربية نفسها على ما تقوله إسرائيل، ومنذ سنين، أيكون الأوان قد آن لتستيقظ وتحاول أن تعرف الوجه الآخر للقضية؟

أيكون الضمير الألماني قد بدأ يصحو ويؤنِّب نفسه؛ لأنه تكفيرًا عن ذنبه في حق اليهود أصبح شريكًا في جريمة ضد العرب والفلسطينيين بالذات.

ورفعتُ الدعوة للأستاذ رئيس التحرير والسيد وزير الإرشاد، وجاءت الموافَقة، ولم يبقَ إلا تحديد موعد السفر.

ولكن السفر تأجَّل مرةً بسبب أنه جاء يوم العيد، ومرةً لأن موعد إيقاف إطلاق النار أو بالأصح إلغائه قد حان. وارتبط الشرقاوي بالعمل في فيلم محمد رسول الله. وانشغلَت أنا بالمسرح، وبدأ حماسي للسفر يَفتر، خاصة وقد كنا في يناير وأعرف بشاعة البرودة في الشمال.

ولكني فوجئت بالخطابات تنهال من الطلبة المصريين في برلين على رئيس التحرير وتُحوَّل للدكتور لويس عوض، الذي يلقاني على الغداء معاتبًا لائمًا: كيف لم نذهب وكيف أن الطلبة فيما كتبوا قد قالوا إن «كُتَّابنا» قد أساءوا لسُمعتنا كثيرًا بتخلفهم عن الحضور، وإن الألمان اعتبروا أننا نخاف المواجَهة ونخاف الإحراج، وأن لا بدَّ من السفر.

وسافرنا.

بعثة صغيرة أتشرف برئاستها.

أحسَسنا أننا نكاد نُفلت فرصة للوطن قلَّ أن تعوض، وأن تأنيب الضمير لن يُغادرنا.

وصلْنا إلى برلين، كانت باردة ترتعش، وصرنا نرتعش. وثبت أن ملابس شتائنا التي جئنا بها لا تصلح حتى لصيف الشمال.

وبدأت الصدمات

اكتشفنا أولًا أن الأكاديمية تلك ليسَت بمعناها المرادف تماما في اللغة العربية، ولكنها هيئة أشبه ما تكون بالمجمع اللغوي مثلًا، جماعة الأكاديميِّين اللاهوتيين الذين تُنفق عليهم الكنيسة البروتستانتية. مبنى صغير أنيق قابع في آخر الدنيا. هناك على طرف بحيرة «وانزه» التي انتحر على شاطئها شاعر ألماني لا أذكر اسمه ومعه حبيبته.

والمكان فعلًا يُغري بالانتحار؛ فهو وحيد معزول، بعيد جدًّا عن وسط المدينة، نفسَ بُعدِ حلوان عن قلب القاهرة، التاكسي يأخذ في قطْع المسافة بما يوازي ثلاثة جنيهات مصرية.

المهم، ها نحن وصلنا يا سادة، ها نحن قد وصلنا يا إخواننا الطلبة المصريين، بعثة مكوَّنة من كاتب وشاعر وصحفي، وقد انضمَّ إلينا مفكر جامعي أريب هو الدكتور مصطفى هيكل، وقد جاء من برلين الشرقية ليَحضُر معنا أسبوع الحضارة.

أقيم اللقاء الأول في قاعة الجلوس بالأكاديمية، حضر حوالي الثلاثين شخصًا، تكلمنا عن الأدب والثقافة والالتزام، عن الحرب والسلام، عن اليهود والعرب، عن حركة التحرير الوطني. والإصغاء تامٌّ وجميل، ولا اعتراض بالمرة. هم جميعًا، حتى اليهود منهم، معنا على طول الخط، وكلهم، وبلا استثناء — وهذا هو الغريب في الأمر — مؤمنون بالاشتراكية، بل بالتحديد بالماركسية اللينينية.

أحسست أن في الأمر شيئًا غير مفهوم. قطَعنا كل هذه المسافة، وتركنا المشغوليات والأعمال لنجيء لثلاثين مستمعًا، حتى لو كانوا من الألمان، لثلاثين هم قبل حضورنا معنا!

أقول أحسستُ، وسكت. وجاء موعد لقائي مع الجمهور «العريض» في ليلة ندوتي. كنت خلال الأيام بل ربما الساعات التي مرَّت قد بدأتُ أُلاحظ أشياء غريبة، هذا التعاون المفرط بين الهرميشلر وأكاديميته، وبين كل الطلبة المصريين الذين سُمح لهم بمقابلتنا أو قابلناهم، لكأنه شيء أشبه ما يكون بالتنظيم. بل إن الأكاديمية تُقدِّم لطلبتنا مكان النادي، وترعاهم من كل النواحي! كيف يحدث هذا وأعضاء الأكاديمية باستثناء ميشلر — حسب قوله — ضد مصر والعرب، ومع إسرائيل قلبًا وقالبًا؟ هل يَملك ميشلر كل هذه السطوة على زملائه؟ ولماذا يرتبط طلبتنا فلذات أكبادنا بأكاديمية كهذه، خاصة وهم بعيدون عن المكتب الثقافي ومستشار المكتب الثقافي في بون، الذي دارت هذه الأحداث كلها، وأقيم الأسبوع دون أن يَتكرَّم بحضوره ولو حتى ليُلقي لنا بعض الضوء في وسط كل تلك المعميات؟ المُضحِك أن لا مسئول مصريًّا واحدًا هنا، والهيئة المصرية الوحيدة هي نادي الطلبة المصريين الذي يحتلُّ حُجرةً من مبنى نادي الأكاديمية. لم تعجبْني هذه «الرعاية» حتى لو كانت قادمة من صديق؛ فهو مهما كان أجنبيًّا وباستمرار ستكون الرعاية لمصلحتِه وليس أبدًا لصالحنا.

ثم عرفتُ أشياء: كانت نفس الأكاديمية قد دعت نصَّابًا إسرائيليًّا اسمه أفنيري، محام وصاحب حزب يدعو لتحرير إسرائيل من الصهيونية ويؤكِّد أن هدفه هو إحداث لقاء بين المثقفين العرب والإسرائيليين. أقول نصَّاب لأنك ما إن تبدأ تحك جلده حتَّى يسقط الطلاء البراق في الحال، ويتبين الرجل على حقيقته، وترٌ آخر، ربما من مقام أعلى، هذا صحيح، ولكنه داخل في تكوين الآلة التي تَعزف بها إسرائيل نغمة فرضها لوجودها وأطماعها.

آلة تحوي العجب. من الحزب الشيوعي إلى حزب جاحال. لديها لكل أذن في الدنيا بوقها الخاص الذي تَستعذِب سماعه. العلم الإسرائيلي لونه أبيض ولكن وجه إسرائيل له ألف لون، وعلى ما تهوى أنت تتلون.



جندي ألماني.

أفنيري ذهب إلى برلين فاستطاعت هذه الأكاديمية نفسها أن تُقيم الدنيا وتُقعِدَها، حتى لقد بلغت عدد الساعات التي تحدث فيها وظهر في التليفزيون وفي مدة أسبوع واحد ثلاثين ساعة، غير عشرات الأحاديث واللقاءات والندوات ولقاءات الميكرفون.

أنكون إذن «ديكور» عدالة؟!

في صمتٍ جاءوا بنا. في آخر الدنيا على بحيرة «وانزه» أبعدونا، سرِّية زيارتنا أو تكاد! خبر واحد في أية صحيفة لم يُنشر عن الأسبوع ولا عن حضور البعثة. هكذا بدأتُ أسأل «باستور» ميشلر عن حكايته بالضبط، ولماذا هو مُتحمِّس يا ترى لنا؟

الشخصية الألمانية القهرية

والهر ميشلر رجل قارب الستين ولكنَّه جم النشاط، تبدو عليه الطيبة ولكنَّكَ لا تدري لماذا تتردَّد دائمًا في تسليم حسن نيتك لطيبته. هو في رأيي مثال نموذجي لهذا الجيل من الشعب الألماني. الجيل الذي عاصر هتلر وعاش الحرب ونجا بطريقة أو بأخرى من الهلاك.

والشخصية الألمانية، وقد جاء أوان الحديث عنها، شخصية نادرة التكوين بلا شك. وإذا كان استنتاجي صحيحًا فلا بدَّ أن كل شعب من الشعوب له شخصية وملامح نفسية تتشابه إلى حدٍّ بعيد مع النماذج والملامح النفسية التي ينقسم إليها الأفراد العاديون أنفسهم.

هناك أربعة نماذج بشرية معروفة ينقسم إليها الناس العقلاء الأصحاء؛ هناك الشخصية الشيزودية الميالة للانطواء على الذات والازدواج. وهناك الشخصية البارانودية التي تُسيطِر عليها فكرة واحدة مُتسلِّطة تَصبغ كل أقوالها وأفعالها، وهناك الشخصية المَرِحة الاكتئابية التي يحكم مزاجها موجات مرحٍ واكتئاب، وأخيرًا هناك الشخصية القهرية التي يتسلط عليها ويحكمها ويُسيِّرها عدد الهواتف القهرية النابعة من داخل صاحبها.

إذا كان القياس للشعوب صحيحًا؛ فالشخصية الألمانية هي من ذلك النوع الأخير، النوع الـ oussive خاضع خضوعًا كاملًا لقهر الإحساس بحتمية النظام والانتظام والدقة والكمال، حتمية العمل لا كمصدر لأكل العيش أو التمتُّع بالمركز، إنما كطريقة وحيدة لإثبات الوجود. إنَّ الألماني إذا لم يعمل يُجنُّ أو يموت.

هذه شخصية في الغالب لا يُمكن أن تخضع للعاطفة أو نزواتها، إنما تُسيِّرها إرادة عقلية كاملة. ومن العبث أن تُحاول إثارة عواطف الألماني بوسائل عاطفية، إنه لا يَملك إزاء شيء كهذا إلا الضحك سخرية؛ فحتى عواطفه لا يُمكن أن تصل إليها إلا من خلال عقله. إنه كالعقل الإلكتروني الذي لا يستجيب لأي مؤثِّر سوى «البروجرام» الذي يُغذى به، هذا البروجرام يمضي ينفذه الألماني بالضبط كما أنزل وإلى الأبد، ما دام لم يقع شيء أو يُواجَه بمشاكل تدعوه إلى إعادة التفكير حتى يصل إلى مفهوم جديد آخر يَمضي يُنفِّذه بكل ما يملك من ذرة قدرة حتى يتغير مفهومه بمفهوم آخر وهكذا.

هذا النوع بالذات يكاد يكون عكس نوعنا نحن المصريين؛ فنحن من النوع المرحي الاكتئابي، المتنقِّل دومًا من موجة مرح إلى موجة اكتئاب وهكذا. المسيطر على حياة نوعِنا

ليس هو الإرادة النابعة من مفهوم عقلي للحياة، إنما المسيطر في الغالب يكون العاطفة. حتى القضايا العقلية المحضَة لا سبيل إلى إيصالها لعقل المصري إلا بأن «ينفعل» بأهميتها عاطفيًّا. عقله قادر على الفهم والاستيعاب والاقتناع هذا صحيح، ولكنه أبدًا لا يحول اقتناعه هذا إلى عمل إلا فقط حين يتحرَّك عاطفيًّا أو يرتبط بهذا المنطق أو الرأي ارتباطًا، مهما كانت سلامة الرأي أو معقوليته. العمل بالنسبة لشخصيتِنا في الغالب عبء، تفرضه احتياجات الحياة، ننتهي منه بأسرع ما نَقدِر لنتفرَّغ لمهمتنا الرئيسية؛ أن نسعد ونحيا بسعادة، أن نضحك ونمرَح ونُفرفِش، باختصار أن نعيش. عند الألماني نوع الحياة غير مُهمٍّ بالمرة، المهم هو نوع وكم العمل، هنا اهتمامنا الأساسي منصبٌّ أولًا على كيف نحيا الحياة، وفي الدرجة الثانية أو حتى الثالثة يأتي الاهتمام بالعمل. الزمن مثلًا مهم جدًّا في ألمانيا لأنه مقياس العقل للحياة. الزمن عندنا غير مُهمٍّ لأن لكل منا زمنه الخاص، بل حتى لمزاج كلٍّ منا زمنه الخاص. و«ساعة الحظ ما تتعوضش»؛ إذ مقياس الوقت ليس هو كميته ولكن المقياس الحقيقي للوقت هو نوعه، ومقياس الحياة هو مقدار ما تحتويه من ساعات مُتعة وليس ما احتوته من ساعات كدح وإنتاج. نحن في الحقيقة نكره العمل؛ لأنه يمنعنا أن نحيا، وهم يموتون عملًا؛ لأن العمل لديهم — في حدِّ ذاته — أحلى مُتَع الحياة، أسعد لحظات الحياة.

أبدًا ليس صدفة

ولقد ذهبتُ لألمانيا بعد عودتي من اليابان، وها أنا ذا أصل لاعتقاد راسخ أن مِحوَر «ألمانيا-اليابان» لم يَقُم صدفة أبدًا، ولم يتحالف الجرمان مع الأقزام السمر ضد الأنجلو ساكسون والسلوفاك عبثًا.

بل الحقيقة تكاد تتَّضح لعيني الآن، إنه تحالف المتطرِّفين ضد أوروبا السوية، وكان طبيعيًّا جدًّا وقد قفزتْ إلى قمَّة الوجود شخصية متطرِّفة أخرى، أمريكية هذه المرة، أن يحدث هذا التلاقي بين الثلاثة ويُصبح محور «أمريكا-ألمانيا-اليابان» أعتى معاقل الرأسمالية في كل تاريخها، على استعداد لمواجهة العالم كله.

ولقد استعملت التطرف هنا بهدف التخفيف؛ فالواقع أنه ليس تطرُّفًا؛ فلقد ذكرت أن هذه الأنواع البشرية موجودة في حالة كونهم أصحاء عقليًّا، إذا تكاتفَتِ الظروف واحتدَّت وبدأت الشخصية تمرض مرضها المقابل المحدَّد، فالشيزودية تُصاب بالشيزوفرينيا، والبارانودية تصاب بجنون الفكرة الثابتة، وهكذا.

وبكل المقاييس العلمية إذا طبَّقناها فلا يُمكن اعتبار الشخصية الشيزودية اليابانية والقهرية الألمانية شخصيات عادية. لقد تآمَرَت ظروف كلٍّ منهما الخاصة لتدفَعَ بمُؤشِّر التوازن كثيرًا أو قليلًا تجاه المرض. هناك شعوب أخرى تَنضوي تحت بند الشخصية القهرية، وكذلك الشيزودية، ولكنها أبدًا لا يُمكن أن يبلغ بها الأمر هذا الحد غير العادي الذي وصلتا إليه.

ظروف العُزلة في اليابان، والإحساس أنهم الأقل قامة وشكلًا وحضارة من آسيا والصين، ظروف ألمانيا التي مكَّنَتْها شخصيتها من أن تتفوَّق دائمًا وتُحاول التسيُّد على القارة أو العالم، بحيث يتكتَّل الجميع، أكثر من مرة ضدها، بهذه الظروف كلها لم تَعُد الشخصية اليابانية مجرد شخصية شيزودية، ولا الألمانية مجرد نمط قهري. لقد نما الازدواج في اليابانية حتى بلغ مرحلة الإحساس الخطير بمركب النقص الذي يكاد يدفعها إلى الانتحار عملًا وقوة طلبًا للتفوُّق، وبلغ مرحلة الإحساس الخطير بمركب الكمال في ألمانيا إلى حد الإيمان الأعمى بالنفس، والكفر الأعمى بالآخرين، إلى حالة المرض. والغريب أنه، وكلاهما على طرفَي نقيض، هذا يريد الانتحار تفوقًا أو التفوق انتحارًا، وهذا يريد الانتحار كمالًا، يَلتقيان لقاءً مُروِّعًا مخيفًا، لقاء المرضى بالكمال وبالتفوق، لقاء الحاسين بالسيادة على الدنيا فعلًا بأولئك المُتطلِّعين إليها.

لقاء دائمًا تترتب عليه أوخم العواقب، حتى الهزيمة العسكرية الساحقة لا تكفي لكسر المحرِّك المخيف المريض الذي يُلهب كيان الشخصية كلها فتكاد تصوم عن الحياة، وتَعمى عن أيٍّ مما فيها إلا عن هدف إثبات التفوق أو فرضه فرضًا. تَهزمُهم الدنيا عسكريًّا وتنزع من أياديهم المريضة لعبة السلاح التي كلَّفتْ عالَمنا ٤٠ مليونًا من الضحايا، فيُوافقون وهم يخفون الابتسامة في الأكمام. فإذا كنا انهزمنا في مباراة القوة؛ فتعالوا لنُلبسَ قوتنا ثوب التمدين ونتبارز رأسمالًا وصناعة، وتحلُّ الهزيمة الساحقة برأسمال لا تُغذِّيه إرادة مرضية، وينهار المتسابقون واحدًا إثر الآخر، ولا يبقى في الساحة إلا ذوو الدوافع غير البشرية، غير السوية، غير العاقلة، للتفوق والإنتاج؛ أمريكا وألمانيا واليابان. بل حتى ليبدأ التسابق المخيف الآخر بين المرضى أنفسهم، تسابُق أناني شرير هدفه انفراد الواحد منهم بسيادة البشرية جمعاء.

ومع هذا، ولأن هناك معسكرًا آخر، فالرغبة في الانفراد لا تمنَع تكاتُف الجميع، والرأسمال الياباني نافذ على الألماني، والاثنان كتلة واحدة مع الأمريكي. السمة الرأسمالية واحدة، ولكن الضحية هي شعوب هذه البلاد التي يَصرعها، يجردها من إنسانيتها، يُنمي

فيها الأثرة والأنانية والعداء للآخرين؛ هذه الآلة الرأسمالية الجهنمية وهي تعمل، وبمعدل مخيف، وبالعلم والعلماء قد اشتروهم تمامًا يُسخِّرون لهم كل حقائق العلم الإنساني، كل آفاقه، كل انتصار على قوى الطبيعة، يسخر لهم هذا كله ليُغذي هذا الجوع المرضي الشهواني لامتلاك العالم في قبضة يد وتحت تصرُّف ضغطة إصبع، إصبعي، أحرك الدنيا بسبابتي أنا، حتى لو كانت الحركة إلى الجحيم.

ألا يكون من نعمة الله على بشره أن العالم ليس ساحة خالية يرقص فيها المجانين الثلاثة رقصة الحياة الموت الجنون. وأن هناك معسكرًا آخر نشأ لكنه، إنسانيًّا جاء، وإنسانيًّا يعمل، الصين قادمة، وألمانيا الديمقراطية، تشيكوسلوفاكيا، يوغوسلافيا، الاتحاد السوفييتي الثاني في الإنتاج، الصناعة الإنسانية أيضًا تمضي، تقف، تُلاحق خطو المجانين. بيدها تأخذ بيد العالم الثالث، عِلمها غير أناني، اكتشافاتها لا يحتكرها بيت عريق في عدائه للإنسان، إنما هي ملك لنا ولهم وللدنيا لو أرادت.

ضاع الأمان

برلين.

فجأة أحسستُ أني في فيلم من أفلام الجاسوسية وجيمس بوند، فقدتُ الأمن، أغرب الإجابات جاءتْني، وليست آخرها حين سألت الهرميشلر لماذا يَصنع هذا كله؟ لم تأتني إجابة شافية واحدة، كل مرة كانت الإجابة مختلفة، هذه المرة قال: بصراحة أنا لا أفعل هذا حبًّا في مصر والعرب فقط، إني إنما أقوم به محافظة على اليهود أنفسهم. إني فيما أرى أنهم لو اعتمدوا على القوة فقط كي يَفرِضوا وجودهم فالمُحتَّم أن يعمد العرب، بالغريزة حتى، إلى القوة، وقد يطول الزمن ولكن النتيجة أن يُهزَم اليهود في النهاية ويؤدي فرض الوجود هكذا إلى استئصال الوجود. أنا إذن من أنصار التعايش والتفاهم مع العرب.

ولأني لم أجد في ملامحه الطيبة أي إشارة تؤكِّد صدقه أو تنفي، فقد سكت. ولم أشأ أن أجادل.

نحن إذن لسنا فقط ديكور عدالة.

ولكن نجيء لأن مصلحة اليهود في المدى الطويل تَقتضِي هذا المجيء.

وهكذا عرفت حقيقة أخرى عن الشخصية الألمانية؛ أن تركيب الشخصية القهرية يُحتِّم أن يكون إيمان الشخص كاملًا بالجهاز الذي يُحركه وبالبروجرام الذي يُغذيه.

وإيمان الشخصية الألمانية بقدراتها إيمان يبلغ حد العبط أحيانًا، أو بالضبط حد الغباء. إن الغباء الألماني المشهور ليس هو الغباء نتيجة قلة الذكاء أو الحيلة، ولكنه نتيجة لتولي الشخصية الألمانية نفسها مهمَّة إلغاء كل قدرات العقل التلقائية على التصرُّف، فهم لا يعترفون أبدًا بما يُسمى لدينا فكرة اللحظة أو وحي الساعة. ما لم تكن الفكرة قد نشأت ونُوقِشت واطمأنَّ الشخص تمامًا إلى سلامتها بحيث يَركبها في عقله وتُصبح جزءًا من برنامج هذا الجهاز الإلكتروني، فإنه أبدًا لا يُمكن أن يحفل بها أو يُنفِّذها. لقد اختصروا وظائف كثيرة من وظائف العقل بحيث لم يَعُد له إلا وظيفة أن يُناقِش ويَقتنع أو يقنع. وحاولوا بالنظام المطبق والقانون أن يُجنِّبوا إنسانهم حاجته إلى التصرُّف الفردي أو المبتكر أو التلقائي. وهكذا فإنه رغم دقة نظام المرور مثلًا وصرامته فحوادث المرور هناك أكثر منها هنا، السائق المصري باستطاعته إذا لمح الخطر أن يتصرَّف، ربما حسبما تعلَّم أو تعوَّد، وربما يبتكر التصرف نفسه ابتكارًا. السائق الألماني إذا رأى الخطر ماثلًا ولم يكن لديه فيما يعرفه من نظام وقوانين للطريقة التي لا بدَّ عليه اتباعها لمواجهة ذلك الخطر فإنه لا يقدم على أي تصرف بالمرة، ويظل ماضيًا إلى الخطر حتى الكارثة، كأنه بطل تراجيديا وليس إنسانًا من أهم ملَكاته قدرته على التصرف اللحظي المُبتكَر.

ذلك الاختناق

وجاءت ليلة الندوة.

وكان عليَّ بعد قراءة أعمالي أن أُلقي كلمة.

كنت أعلم أني هنا في فم الأسد، وأنه نفس الجمهور الذي أحاط بنا من أول لحظة لوصولِنا وكأنما ليكون حزامًا محيطًا حولنا أو حائطًا آخر لبرلين. ازداد عددُه حتى قارب المائة، هذا صحيح، ولكن النوع أبدًا لم يتغيَّر. إنه جمهور مختار ومُنتقًى بعناية بحيث كلماتنا إن نفَذت فإنما تنفذ إلى أدمغة مطعَّمة تمامًا ضد أي نفاذ، أو تَنفذ إلى أدمغة نحن بغير حاجة إليها؛ لأنها أدمغة غير محايدة.

ومع هذا فقد كان لا بدَّ أن أُواجههم بالحقيقة، كيف يَصنعون بمجيئنا مسرحية جيدة الإخراج كعادة الألمان، مُختارة الجمهور بحيث يَنتفي دور الجمهور، عرضها يتم سرًّا حتى لا يتسرَّبَ خبرها إلى المواطن الألماني العادي، ونحن لا نعرف أيضًا كيف تتسرَّب؛ فجمهورنا هو حراسنا، واختلط الحابل بالنابل، والمعالم تاهت، والإنجيلي يُحدِّثك وكأنه مصري، والمصري وكأنه إنجيلي. والعرب كلٌّ في طريقه، وكلٌّ فقَد الثقة في الآخر، وكلٌّ

يكيل الاتهامات للآخر، وعليك في النهاية أن تختار حزبًا من أحزاب أيِّ مخابرات تشاء، وتتَّهم به غيرك أو يتهمك غيرك به.



شيلوك تاجر البندقية.

قلت الحقيقة هذا صحيح، كل الحقيقة، بادئًا بأني لم أقبل المجيء إلا بناءً على الخطاب الذي أرسله الطلبة المصريون، ولولاه ما جئنا.

قلت كيف أحسُّ لأول مرة في حياتي أني أختنق اختناقًا حقيقيًّا في برلين «الحرة»، وأن دكتاتورية إكسل شيرنجر أبشع ألف مرة من دكتاتورية الساذج الجعجاع جوبلز، حتى يسارُكِ يا «برلين» لا يُثلِج القلب، ٣٣ منظمة يسارية تتطاحن وتتحارَب! ما أسعد اليمين بهذا اليسار إذن! وما أذكى المخابرات الأمريكية وهي بعدُ لم تَعُد تتنكَّر في أحزاب الرجعية والعمالة المكشوفة، ولكن ما دام اليسار هو المودة بعد ثورة الشباب عام ٦٨، فليكن التنكُّر يساريًّا متقنًا، وليكن داعرًا أيضًا، ولتُقِم جامعة برلين «الحرة» معرضًا

هدفُه إقناعك بالماركسية والشيوعية بالصورة واللوحة والتجسيم، معرضًا لا يزورُه أحد، ولتمول حكومة برلين مسرحًا يعرض أعمال «برخت» و«جوركي» لتبدو زاهية المكانة، وليتولى العمال دور الرجعية بحيث — كما ذكر لي طالب يساري حين سألته ما رأي العمال حين يَذهبون إليهم ليُعلِّموهم الماركسية نظرية الطبقة العاملة ذاتها — يضربون هؤلاء الطلبة وبعنف يلعنونهم؛ إذ قد لقَّنتهم صحافة شبرنجر أن الشيوعية إذا جاءت ستُجرِّدهم من كل «المكاسب»، والتأمينات والتوابل الرأسمالية.

الحكام الرجعيون إذن هم الذين يعرضون لافتات الشيوعية وصورها ويدعون لمبادئها، والعمال التقدميون هكذا مفروض، هم الذين يقومون للرجعية بدور كلب الحراسة بحيث يقطعون دابر أي شيوعي يُحاول خرق النظام والتسلل.

أذكى غباء

حلَّ على القاعة وجوم هائل، الذين أخرجوا الرواية لم يَحسبوا حساب هذه المفاجأة، ولكن، ما أهمية أن أصرخ ملْء صوتي بالحقيقة وأنا في حضرة جمهور محسوب ومختار؟ ما الأهمية والحقيقة خنقُها سهلٌ، ولقد خنَقُوها وخنَقونا معها، وجاءُوا بنا علنًا أمام أنفسهم وسرًّا وبتكتُّم شديد بعيدًا عن أي رأي عام أو حتى رأي مُعاد، ليتسنَّى لهم تغذية العقول الألمانية بمزيد ذكي جديد من أقوال ورُؤى ووجهات نظر إسرائيل؟

وبدأ النقاش.

واكتشفتُ حقيقة أخرى جديدة غريبة من تلك الشخصية الألمانية المُفرطة في خصائصها وغناها.

اكتشفتُ أنه، رغم إيمانها المُطلَق، بتفوُّقها الكامل فهي تكاد تكون أعبط شخصية من شخصيات الشعوب.

والألماني الغربي ليس أبدًا عبيطًا بالوراثة أو بانعدام الذكاء.

إنه عبيط بالعمد وبالحساب المدبر وكالعادة بخطة كاملة الإتقان.

فمن طبيعة الشخصية القهرية أيضًا قابليتُها للتمسُّك بإيمانها بالأشياء ومقاومتها أي إيمان جديد، باختصار إذا كنا نُسمي أجهزة الدعاية وصناعة الكتاب والفيلم والصورة أجهزة صناعة العقول، فإنَّ العقل الألماني من أسهل عقول الدنيا قابلية للصناعة والتشكيل، ذلك أنه، بحكم تكوينِه أيضًا، شعب غير شكَّاك. إنه يَقبل منك ما تقوله ويظلُّ يُصدق حتى يثبت له أو تُثبِت له الظروف كذبة، وحينئذ لا يعود يُصدِّقك أبدًا حتى لو

كانت كذبتُك تلك الأولى والأخيرة. الناس عنده إما كذابون تمامًا أو صادقون تمامًا. وهو يأخذ كلامك من معانيه الأولى المباشِرة؛ فطبيعة الشخصية القهرية أيضًا أنها لا تُعمِل الخيال كثيرًا؛ فالخيال نوع من الكذب، أو بالأصح ليس من فصيلة الحقائق، وفصيلة الحقائق هي وحدها التي يُؤمن بها الألماني ويُصدِّقها. والخيال ذاتي وكذاب ويَدعو أحيانًا لإعادة النظر، وإعادة النظر أمر غير مرغوب فيه لشخصية همُّها الأول أن تعمل، ولهذا تُغذِّي عقلها بأي برنامج تقبله العقول حتى تمضي كالقطار إذا وضع فوق القضبان، همُّها أن تبلغ بحركتها أقصى سرعة وتحقق الأهداف.

صناعة العقول

وعن عمد تُدار صناعة العقول في ألمانيا.

بعد عصر الثقافة الألمانية الذهبي، بظهور الرأسماليِّين وبيوت الاحتكار. بدأ عصر صناعة العقل الألماني بطريقة تخدم تمامًا هؤلاء السادة الجُدد. ولكي تصنَع العقل على هواك لا بدَّ أولًا أن تَعزِله عن العالم، وهكذا نشأت بدعة احتِقار لغات الآخرين والإصرار على الألمانية. ثم تَطعيم الشعب ضد الثقافة، وهكذا نشأت أيضًا بدعة تحسُّس المسدَّس إذا ذُكرت الثقافة وبدعة حرق الكتب، في الواقع بدعة إخفاء الحقائق عن شعب يُدركون جيدًا أنه مولَع بها وأنها إن وجدت لن يُصدِّق غيرها. إخفاء الحقائق من ناحية وإدخال صناعة جديدة اسمها صناعة صنْع الحقائق.

والأمر ليس مجرَّد ألفاظ، والمسائل هناك لا يأخذونها هزلًا. إنَّ تصنيع الحقائق شيء مُختلِف تمامًا عما تعوَّدناه من «فبركتها» هنا. أن نَصنع حقيقة كاللُّؤلؤة الصناعية مُستحيل أن يُميِّزها عن الطبيعية إلا إنسان ذو مستوًى خاص، عمل صعب. وإذا عُدْنا لتاريخ صنْع «حقيقة صناعية» كحكاية سيادة الجنْس الآري لوجَدْنا أن الإتقان في تزييفها بلَغ درجة تكاد ترفَعُها إلى مُستوى الحقائق العِلمية. وأعرَفُ الناس بالألمان هم اليهود. واليهود كانوا قد وضَعُوا عُيونهم على ألمانيا ما بعد هتلر. إنَّ الألمان في نظرهم الشعب المثالي لتحقيق أهدافِهم هم من ألمانيا. الألماني مثالي لأن قدرته على العمل وجنونه بإتقانه تُحتِّم نجاح أي صناعة أو نظام يقوم على أرض ألمانيا، الألماني مثالي لأنه ينتمي لشعب خرج من الحرب بمخٍّ مغسولٍ من آثار الثقافة أي الحقيقة الحقة، أصلَحُ تُربة لتربية الحقائق المصنوعة، بل حتى صالح أيضًا لتربية العقد ومركَّبات الذنب الصناعية.

كان مطلوبًا أن تَصنع تركيبة نفسية تجعل شعبًا بأكمله يَحيا أعوامًا طويلة، ولا يزال يحيا، وقد استولت عليه تمامًا عُقدة أنه أذنب. وقد عولج ضميره بحيث أصبح لا يرضى أبدًا إلا إذا كان إرضاؤه على هيئة نقود أو صناعة أو أي شيء يُقدَّم لإسرائيل.

ولكي تَنجَح الخطة كان لا بدَّ من «كادر» يهودي كامل يُنفِّذها، كان لا بدَّ من إمساك كل الخيوط التي تحرك الرأي العام وتصنَعه بأيديهم هم.

وكانت الحكومة الألمانية تدفع لكل يهوديٍّ ألمانيٍّ يعود إلى ألمانيا بعد الحرب كذا ألف مارك تعويضًا له، غير التعويض الهائل الذي رصدتْه الحكومة لإسرائيل.

ونما الرأسمال الألماني في أحضان رأسماليِّين عُتاة يهود. خبرة الألمان وطاقتهم ودولارات أمريكا وناب اليهود الذكي الأزرق.

وبينما اليابان تنمو وتوسع، كانت ألمانيا أيضًا وبسرعة مذهلة تَمضي حتى لتصلَ إلى درجة أصبحت البنوك الألمانية تَرفض أن تُودَع فيها النقود كدولارات، إنما تشترط أن تكون العملة المودعة بالمارك؛ إذ المارك أصبح أكثر قوة من الدولار. وفي نفس الوقت كانت الجمارك الأمريكية تفرض الضريبة تلو الضريبة تحمي صناعتها «الوطنية» من صناعات اليابان وهي تغزوها في عُقرِ دارها.

كان القهري والازدواجي قد انتصَرا؛ ذلك أن الشعب المتجانس حتى في مرضه أو في صحته، أكثر إثارةً للرعب. ومُرعِب أن تحيا هناك. في ألمانيا أو اليابان الغربة تُطاردُك وتَطرُدك. غريب مع المتعالي هنا، غريب مع المنطوي المؤدب هناك. غير أن المدهش في هذا الصراع صراع المجانين هذا، هو أيهما يعمر أكثر.

المريض بمركب النقص.

أم المريض بمركب الكمال.

أنا شخصيًّا أعتقد أن الياباني سيَكسب، ليس فقط لأنَّ حالته أشد، وإنما لأنَّ مركب النقص يُزوِّد الشخصية بفجوة أبدية لا تَشبع ولا ترتوي، ولا تُوقن مهما فعلَت أنها أصبحت سيدة الآخرين أو أنها وصلَت. أما الألمان فاعتقادي أنهم بالتوحيد إذا توحَّدوا، وبالانقسام إذا ظلُّوا هكذا فإنهم قادِمون على شيء لم يُهيِّئوا أنفسَهم له أبدًا. أن يبدأ العالم الذي احتقَرُوه طويلًا واحدًا إثر الآخر يَسبقهم، ومشدوهين هم حيرى، يجدون أنفسهم مطالَبين بأن يشكُّوا في شيء لم يكن ليقترب منه الشك مهما طغى، في تفوق العقل والطريقة والقدرة الألمانية.

لقد كانت ألمانيا بصناعاتها ومؤسساتها تبهرني وأرى فيها صورة الإعجاز الأوربي الصناعي.

بعد زيارتي لليابان، بدَت ألمانيا كالقرية، فما يَصنعه الأقزام السُّمر في ركن الدنيا الشرقي شيء هائل مُخيف لن يُصدِّقه العالم حتى بعد وقوعه.

والذكاء دائمًا وليد الشك في الذكاء.

والغباء نتيجة حتمية للإيمان المُطلَق بالذكاء.

وهكذا غباء ألمانيا.

ويا له من غباء!

إذ في النهاية يتَّضح السبب في حماس الهرميشلر والأكاديمية لمصر؛ فلقد قامت السلطات المصرية بالقبض على أحد المصريِّين من أصدقاء ميشلر والأكاديمية كان يُقيم في ألمانيا الغربية وعاد إلى مصر وبدأ التحقيق معه في التُّهم المنسوبة إليه. وهنا فقط تحرَّك الهرميشلر لإنقاذ صديقه وعرض أن يُقيم أسبوعًا لمصر في ألمانيا مُقابل إطلاق سراح الصديق. هي صفقة إذن لعلها أغرب صفقة في التاريخ. هكذا، في النهاية يتَّضح السبب الحقيقي وراء الدعوة ويتضح سر الحماس، ويتبدَّى للشخصية الألمانية جانب جديد آخر. إني كنتُ على صوابٍ في اعتقادي أنَّ المسائل لا تبدو طبيعية بالمرة. لقد أُحطْنا في برلين بذلك التكتُّم الشديد، فلو تمَّت زيارة حقيقية ووصلنا إلى حدِّ مخاطبة الرأي العام هناك والالتقاء مباشرة مع جمهور المثقفين، لو وصل صوتنا فعلًا للرأي العام واستطعنا النفاذ من حاجز الكلمة والصوت والصورة وتصدَّينا لبحر الأكاذيب التي تُروَّج هنا لغضبت إسرائيل ولثارت ركائزها في ألمانيا واعتبرت أن ما حدث جريمة ارتكبتها الأكاديمية وارتكبها ميشلر، ولعاقبتْهم العقاب الوخيم.

وهكذا اتَّضح بُعدٌ آخر للشخصية الألمانية ماركة شبرنحر وشتراوس، إنها شخصية لا تقدم على عمل إلا إذا كان يَخدم أهدافها أولًا وأخيرًا. حتى الملايين التي تدفعها لإسرائيل هي في حقيقة أمرها أولًا لصالح ألمانيا، لصالح إبقاء التخلُّف جاثمًا على أنفاس شرقِنا العربي! وحتى لو كان لصالح اليهود فالمَوقِف الآن مختلف، وبعد المجازر والحرب توحَّدت المصالح وأصبح ما يخدم إسرائيل يخدم ألمانيا الغربية وأمريكا وكل معاقل الرأسمال، والتناقُض إن وجد فهو ليس الرئيسي؛ إذ التناقض الأول معنا، وكل ما عدا هذا فهو فرعي ولا أهمية خطيرة له.

الفصل السابع

فلنكتشف أنفسنا

مُمثِّلو أول حضارة على سطح الأرض

ربما نحن لم نزَلْ بعدُ لا نُدرك قيمة حضارتنا في نظر العالم. أي انبهار كان يحدث للشخص حين ألقاه وأُقدَّم إليه ويَعرف أني مصري، فيعود يشدُّ على يدي ويقول: إني سعيد جدًّا أن أقابل ممثلًا لأعرق وأول حضارة على سطح الأرض.

ولقد سألت عالِمًا هنديًّا عما يَعنيه بالضبط بتلك العبارة فقال: ليست حضارتكم حضارة بناء ومعمار وفن ولغة وعلوم فقط، ولكنَّها الحضارة التي أحدثت في العالم القديم ثورة حضارة لا تقلُّ عن الثورة التي أحدثتْها الصناعة واكتشاف البخار والكهرباء والذرَّة، والتكنولوجيا في عصرنا الحاضر.

أنتم اكتشفتُم الزراعة. اكتشفتم أن باستطاعة الإنسان أن يتحكَّم في المملكة النباتية والحيوانية بحيث كانت من النمو التلقائي الذي لا ضبْط له، فأصبحَت تُزرَع المساحات الشاسِعة من الأرض بإرادة الإنسان وبالتحكُّم في البذور والمياه واختراع أدواتٍ للريِّ والزراعة.

كنتم أول من تحكَّم في الطبيعة وسخَّرها في خدمة الإنسان. ومن هنا لم تكن حضارتكم الأولى فقط، ولكنها بداية تحكُّم الإنسان في الجماد والحيوان، ممَّا كان لا بدَّ أن يُؤدِّي تلقائيًّا إلى اختراع الآلة وتطور العقلية والعلوم، ثمَّ مراحل المدنية التي أوصلتْنا إلى ما نحن فيه الآن.

ثم ابتسَمَ وقال: ولو لم يتحكَّم الكهَنة ورجال الدين في تفكيركم بحيث يُوجِّهون اهتمامكم الأكبر لا لتطوُّر ما اكتشفتُموه وإنما للتوقُّف عنده والتوجه كلية إلى الحياة الأخرى ومشاكل الخلود. لو أعطيتم نصفَ اهتمامِكم بالموت وما وراء الموت إلى الحياة وما

يدور في الحياة، لكنتُم قد وصلتُم إلى العلوم الحديثة من أحقاب وأحقاب، ولكان الإنسان قد اختصَرَ من رحلة حضارته مئات السنين.

ولقد أرَّقني قوله كثيرًا، ولا يَزال يُؤرِّقني؛ إذ ونحن الآن نُحاول استعادة ما فاتنا، ونحاول الوصول إلى أسرار الثورة التكنولوجية الحديثة، فلا تزال مُشكلتُنا الكبرى، كما كانت في الماضي، لأي هدف نتعلَّم ونَستحوِذ ونصنع ونثور ثورتنا الحضارية الثانية؟ ألكي نَستعملَها لنُفكِّر في الموت وما وراء الموت والنظر إلى ما فات وعبادة الأمس وإحيائه وإعطاء الظَّهر للحاضر وآفاق المستقبل؟

إذا لم نكن نَبغي التحضُّر لنَسبِق الزمن ونُعوِّض ما فات؟ إذا لم نكن نُقاتل لنستعيد ذواتنا وأنفسنا لنمضيَ إلى الأمام؟

إذا لم نكن قد أدركنا أننا تأخَّرْنا لأننا كنا دائمًا نَحيا في عصر بأجسامنا كي نتفرَّغ للحياة في الزمن الذي مضى بعقولنا وأحلامنا؟

إذا لم يكن هذا كله هو رائدنا؟

فأبدًا سنظلُّ غُرَباء كتماثيل المتاحف في عصرٍ حي. ستظلُّ عقولنا تجري إلى الأمام لتأخُذ من الحياة كل ما تَستطيع به عقولنا أن تَجري إلى الخلف.

ما غايتنا؟

وهنا الفيصل.

هنا لا بدَّ أن نتوقَّف ونسأل:

نحن نُريد التحرُّر لنتحضَّر ونتمدَّن، نُريد الكهرباء لنَصنع، نُريد العلم لنَختَرِع، ولكن كل هذه وسائل؛ إذ تَبقى الغاية.

فما غايتُنا من هذا كله؟

والسؤال مُهم، والتساؤل محتَّم؛ فلقد استحضرْنا التليفزيون وعمَّمناه لنَنشُر ثقافة هزِّ البطن ومجالس الخلفاء والنُّدماء، أو بالميت لنعرض فيه أفلامًا قديمة لعقلية قديمة ولأهداف بالغة التأخُّر.

والسينما استعملناها لنُروِّج لأسفِّ وأحطِّ القيم.

وصناعة السيارات بذلنا فيها دم القلب لتتكدَّس تاكسيات يَملكُها القادِرون.

ووزارة الثقافة استعملناها لنُنتج كتبًا ميتة ومسرحيات هابطة.

السؤال مُهم.



فتاة الجيشا.

فما لم يكن هدفنا واضحًا نَرتضيه ونُجمع عليه ونُوزِّع أدواره على كلٍّ منا.

ما لم يكن وراء التحرُّر، والحرب أو السلام، والاشتراكية أو التصنيع، والتنظيم السياسي أو تحديد المِلكية، ما لم تكن هذه كلها أجزاءً نابعة ومُنتهية إلى هدف أكبر وأعظم يُصبح في حياتِنا الهدف المقدَّس، وتقديسه نابع من تقديس كلٍّ مِنا له واختياره إياه. فإنَّنا لن نصلَ لتحقيق هذه المفرَدات فقط، ولكننا ربما نُحقِّقها بطريقة مُثيرة للضحك تمامًا؛ إذ نُحقِّقها لنصل بطريقة تقدُّمية جدًّا إلى هدف متخلِّف جدًّا، أو بالأصح نُصبح عباقرة الإسراع إلى الخلف في عالمٍ بالكاد نستطيع اللحاق به لو أسرعنا إلى الأمام.

إحساس واحد لا زال يَنقصُنا.

لم يكن في نيتي كشْف شيء أو اكتشاف قارة. والحقيقة أن الأمر كله حدث برغمي.

فلقد غادرتُ بلادي بعقل ما ووجدان، هو نفس عقلنا الذي بدأ يَنعزِل عن العالم ويَنغلِق على نفسه، ووجداننا الذي حين يَحزن ينطوي بطريقة تلقائية على ذاته وكأنما يَستمتِع منفردًا بالألم.

وفقط حين رأيت الآخرين، الأفقر منا بكثير، الأقل منا عمرًا، الذين يروننا الأعرق والأخلد، بدأت أكتشف نفسي، أقصد نفوسنا، وأجد كل نفس لدينا قد أصبحت قارة، أحاطت نفسها بستار، ترفض كل شيء، وتهزأ بأي حدث، وتعيش، مثلما غيرها يعيش، وكأننا كنا في انتظار النكسة لنقول: بركة يا جامع! لنقول: وما الفائدة؟ لنقول: ولسه حـ نرجع نعافر تاني؟

وكل عشمي ألا نكون قد خرجنا من هذا كله وقد أضيئت معالم الإنسان الآسيوي في عيوننا، عشمي الأكبر أن يكون كلٌّ مِنا قد خرج بضوءٍ قد تسرَّب لنفسه هو، حتى بلا ضغينة يراها، وبلا تأنيب كثير للذات يحادثها، وبحيشه يكشف طاقة أمل، مهما صَغُرت، فهي البداية.

فلنُعجِّل بالبدء

المشكلة أن نُعجِّل بأن نبدأ، فكل ثانية من الزمن تمرُّ تموت من أعمارنا ثانية ولا تعود تحيا أبدًا. وكل ثانية زمن تموت، تموتُ معها ثانية إرادة. وإذا كان في نيتِنا أن نموت فلا شيء يدعو حينئذ للتعجُّل، أو اليقظة، أما إذا كان في نيتِنا أن نحيا؛ فمِن المُستحيل ما دُمنا قد اخترنا أن نحيا أن نؤجِّل الحياة.

والحياة ليست مجرَّد شعاع أمل، أو إحساس بضرورتها، أو إعجاب بها. الحياة حركة. إذا أردْنا أن نكون فلنتحرَّك. بل حتى لو قرَّرنا الموت فلنَمُتْه كما يموت الحي، نَمُتْه حركة، نمُتْه عملًا، نمُتْه شيئًا آخر غير التمدُّد، فاغِري الأفواه، مفتوحي الأعين نتفرَّج، حتى على آلامنا نتفرَّج، وكأن ما يَحدث يحدث لغيرنا، وكأنَّ الألم لا يَكوينا، وكأنَّما إرادتُنا جميعًا سرَقها لصٌّ ووضَعها في صندوق وألقاه في البحر، وكل مشكلتنا أن نظلَّ نتساءل أين مفتاح الصندوق؟ أحيانًا نظنُّه مع يارنج، وأحيانًا مع الدول الكبرى، وأحيانًا لا بدَّ أن أحدًا قد دَفَنه في رمال سيناء.

والمفتاح — أيها الأعزاء — والصندوق والإرادة داخلنا لم تُسرَق ولم نَضِع، مع أنفاسِنا تتردَّد، رهن إشارتنا تكون، والمسئولية مسئوليتنا.

وعلى أنفسنا نحن نتفرَّج، والنُّكتة نرويها دائمًا والمُغير بطلها، في حين أن راويها لا يَعرف أنه البطل، والمسألة طالت وطالت، والأحاسيس كَثُرت وتشعَّبت. كلُّ ما في الأمر أن إحساسًا واحدًا لا نَزال لم نَشعُر به، ونتجنَّب أن نشعر به، هو إحساسُنا بالخجل.

خاتمة

أن يَنتهي الكلام عن آسيا، كأن يَنتهي الكلام عن الجنس البشري والإنسان، مسألة لا يتصوَّرها عقل، هي ليست قارة فقط، ولكنها أكثر من ثلثَي العالم، وبين كلِّ ثلاثة من سكان الأرض تجد اثنين منهم آسيويين؛ فهي أضخم القارات عددًا، وأكثر التناقُضات تناقضًا، ومن الرأسمالية بأبشع صورها الآسيوية في اليابان وتايلاند وفورموزا وغيرها، إلى الاشتراكية بأروع صورها الشيوعية في الصين وكوريا وفيتنام، ومن بلادٍ مُحايدة وعلى شفا الحياد، إلى تجارب في الديمقراطية الاشتراكية المُعتدلة في الهند، إلى دكتاتوريات عسكرية، إلى شعوبٍ يَحكمها الاستعمار ومخابراته، وشعوب انتُزعت حريتها، إلى إنسان يعبد الأصنام لا يزال، والآخرون أخذوا الماركسية العلمية عبادة، من نساء على هيئة جيشا، إلى مقاتِلات تخصَّصنَ في إسقاط الطائرات، من حالة الكفاف إلى دون الكفاف، إلى الديسي والملتي مليونيرات، من الأباطرة إلى الرفاق، ومن بلادٍ لا ينمو فيها القتاد إلى أغنى البلاد، إنها العالم مركَّزًا ومزدحمًا وواصلًا إلى أقصى درجات تناقضاته.

البلد الذي خلب لبي

ومع كل ما رأيت، فإن البلد الذي خلب لبي في آسيا هو الهند؛ الشعب، والحضارة. وفي البطولات ليس أعلى مِن فيتنام. في التحلُّل هناك تايلاند وهونج كونج. في الطموح المُخيف نرى اليابان. في أي مكان لا بدَّ أن تَعثُر على نموذج، والنموذج صارخ، وفي كل مكان تلحظ حركة التاريخ سادِرة سريعة، لا يوقفها شيء. في الواقع آسيا كونٌ، ومهما درتَ مع أفلاكه، في الشرق والجنوب والشمال، فأنى تذهب فستَشعُر حتمًا أن لهذا الكون مركزًا،

ثقله من ثقل الشمس، ومكانه الصين. هناك هي الحقيقة الكبرى، ودائمًا هي في الطريق لتُصبح الحقيقة الأكبر.

وآجلًا أم عاجلًا، شاءت أمريكا أم أبت؛ فمصير آسيا للصين، لا للاستعمار الصيني، فالماوتسية لا تستعمر، وإنما للإشعاع العقائدي، والمذهبي والثقافي والسياسي الصيني. ومن الآن ترى الإشعاع يتجسَّد، والأحزاب الشيوعية الصينية النمط تتكاثَر وتُصبح الأقوى، وتملك المنطق الذي لا يُقاوَم؛ الثورة المسلحة التي لا بديل عنها ولا محيص.

بل أكثر من هذا، سمحتُ لنفسي — ولستُ سياسيًّا — أن أتصور الغد الآسيوي، وهو غدٌ يكاد يكون مفاجأة. لقد حاولت أمريكا أن تبني اليابان قاعدة رأسمالية تقود القارَّة إلى معسكر الرأسمال، ومنذ نهاية الحرب واليابان تبدو لأمريكا وكأنها أطوع لها من بنانها في هذا الاتجاه، ولكن المسائل بدأت تَنكشِف، ومع ازدياد القوة الاقتصادية اليابانية بدأت اتجاهاتها، أو رياح اتجاهاتها المستقلة تهب. وإذا كانت أمريكا قد بذلَتِ المستحيل لتضع بين اليابان والصين إسفينًا يُبقي العداوة بينهما إلى الأبد، فإن تقديري الشخصي أن الإسفين سيتحوَّل، بطريقة لم يَحلُم بها أحد وأبدًا، أبدًا لن تدخل اليابان في عراك أو تناقُض مع الصين. ومنذ الآن تضع اليابان خططها لتتكامَل اقتصاديًّا مع العملاق الأحمر المُجاوِر. وبالصين واليابان معًا، بآسيا الاشتراكية والرأسمالية التي بدأت تعود لتُصبِح وطنية بعد أن استنزفَت ما استطاعَت استِنزافه من رأس المال الأمريكي، بهما معًا، في القريب، ستَنشأ كُتلة أو معسكر متكامل مُتناسق أخذ من الغرب كل عمله وأسراره الرأسمالية ومن الشرق كل خلاصة تجاربه الاشتراكية، وبدأ وسيبدأ يُحقِّق لآسيا وجودًا لم يكن لها في يوم من الأيام. ومثلما خُيِّل لبعض المعلِّقين أن احتمال حدوث الحرب بين أمريكا وروسيا أقل من حدوثِه بين الصين وروسيا؛ فالاحتمال الذي سيتكشَّف عنه المستقبل، أن آسيا بغربها وشرقها بصينها ويابانها، ستقف وجهًا لوجه أمام الاتحاد السوفييتي باشتراكيته، والغرب برأسماله.

وإذا كان هذان القطبان الآسيويان في مركز أقل، وليسا الدولتين الأعظم بعد، فإن الانفجار الاقتصادي والصناعي في الصين واليابان يتطوَّر بسُرعة مُخيفة، وعلى يد العقلية الآسيوية الدائبة المتقشِّفة الظامئة إلى الوجود والتفوُّق من زمن طويل، سيَصل إلى آفاق لا يُمكن أن يتصوَّرها أحد.

عصر آسيا

نحن مُقبِلون إذن على عصر آسيا.

والصراع الآن على أشدِّه.

اليابان تُحاول أن تسحب البساط من الرأسمالية الأوربية والأمريكية، وتُصبح هي موردة الصناعة والصناعات لبقية البلاد المُرتبِطة بالرأسمالية.

والصين تُحاول أن تحلَّ محلَّ الاتحاد السوفييتي في قيادة الثورة ضد الاستعمار والنفوذ الاستعماري بكافَّة أشكاله في البلدان التي تَبغي التحرُّر.

وإذا انقسم العالم في بحر السنوات المُقبلة، فإنما سيَنقسِم إلى حضارة رأسمالية نامية مُكتسِحة، وحضارة غربية تُحاول الدفاع عن النفس والوقوف في وجه ثلثَي سكان العالم وقد امتلكوا أخطر أسلحة العصر: العلم والتكنولوجيا، وفوق هذا كله، قوة النمو المتفجِّرة الدامغة بعد طول صبر وطول مقاوَمة.

وسيكون الحياد حينئذ، حياد بقية أوروبا أو بقية آسيا وأفريقيا، حيادًا من نوع آخر. ليس فقط حيادًا بين المذاهب، ولا بين الاشتراكية والرأسمالية، وإنما حياد بين آسيويين لا نهائي العدد، وأمريكي أوربيين انتهَت خلافاتهم المذهبية والنظامية، يَقتُلهم الرعب من الخطر «الأصفر»، الذي طالَما تخيَّلوا بتنبؤاتهم وجودَه خوفًا من وجوده.

ولكني مع هذا، أتمنى أن يحدث شيء آخر.

أتمنَّى أن يكون وقوف الإنسان الآسيوي على قدمَيه، ووقوف الإنسان الأفريقي على قدمَيه، فرصة أمام الواقفين على أقدامهم فعلًا، لا لكي يُقاوِموا هذا الوقوف من الجانب الآخر أو يَعتبروه الخطر الساحق، وإنما بداية لعالم آخر جديد، وقانون آخر يَسود هذا العالم؛ قانون المساواة، قانون العالم الأنضج الأقوى. قانون لا يعود يسمح بقوة وحيدة ما، أو حضارة واحدةٍ ما، أو مُنتصِر واحدٍ ما يسود ويَخضع له الباقون وإنما نَبلُغ بعقولنا حد الاعتراف أن السيادة المُنفرِدة ولَّت أيامها، وأن العصر عصر تعاوُن السادة، عصر التشارك وليس عصر التفرُّد، عصر التقاسم وليس عصر الاحتكار، عصر التنوع وليس عصر النموذج الواحد، عصر مساهَمة الحضارات أجمع في رقيِّ العالم أجمع، وليس عصر إملاء الحضارة الواحدة على العالم كله.

نعم، أتمنَّى مثلَما أدَّى التوازن الذري والنووي إلى إلغاء الحروب الشاملة، أن يحدث نفس الشيء حين يوجد التوازُن الحضاري والفكري، بحيث يَنتهي جشع كل قومية لاحتلال أرفع مكانة، كل كتلة لسَحقِ الأخرى والانفراد بالزعامة.



بطل أفريقي.

أتمنَّى أن يَنتهي الصراع بين الرأسماليِّين دون حرب بين بعضهم البعض، والصراع بين الاشتراكية دون سفْك دماء، وفي النهاية أتمنَّى زوال الرأسمالية كنظام استغلال دون ثمن باهظ، دون حربٍ ضحيتها رجال ونساء وشيوخ وأطفال، حياة أي فرد منهم أثمن عندي من أي شعار؛ فالمذاهب لا توجد لتسود بالقتل وبالمهلكات، وإذا كانت الاشتراكية قد قامت لتمنَع استغلال الإنسان للإنسان، أي قامت بسببٍ نبيل تمامًا وشريف وإنساني، فلا يُمكِن ولا يُعقَل أن يكون الطريق لتحقيقها طريقًا تسيل فيه الدماء، دماء نفس هذا الإنسان الذي قامت لتمنع عنه مجرد الاستغلال.

ولكن المؤسف حقًّا أن الدماء تسيل لأنَّ المستغلين يقاومون زوال الاستغلال بضراوة، المؤسف أنهم يستعملون نفس الذين يسومونهم ويستغلونهم في الدفاع عنهم وعن عالَمهم تحت أزهى وأبهى الشعارات.

المؤسف أن الخداع ما دام قائمًا، وما دام هناك مخدوعون فالصدام حتمي، وأنهار الدماء حتمية، والوحشية في جنسِنا حية لا تزال.

ولا سبيل لإنهاء الخداع إلا بتجديد المواقِف، ليس فقط على كل دولة أن تُحدِّد موقفها من الصراع في العالم، ولا على كل شعب، ولا علينا كهيئات وأحزاب وتنظيمات، إنما حتى على كلٍّ منها كشخص. وذات يوم قالها الفيلسوف: أنا أفكر فأنا موجود، ومنذ قالها تغيَّر العالم، ولم يَعُد التفكير يَحدُث لمجرَّد التفكير، وأنت لا بدَّ أن تُفكِّر اليوم لتتَّخذ في النهاية موقفًا، وعلى ذلك فلتُصبح الكلمة: أنا لي موقفٌ فأنا موجود.

محال أن يَسمح العقل الصحيح لصاحبه أن يكون حيًّا عائشًا في آسيا أو في أفريقيا أو في أمريكا اللاتينية أو أمريكا نفسها وأوروبا، ولا يكون له موقِف في هذا الصراع الدموي الدائر أمام عينيه، صراع حتى الموقف السلبي منه لا يُجدي؛ فالموقف السلبي يخدم في النهاية الاستعمار والمستغلين.

وبعد جولة في آسيا الرأسمالية وأوروبا — وقبلهما أمريكا — لم يَعُد أمامي إلا أن أُعلنها صريحة واضحةً لشَعبِنا ولكلِّ شريف في هذا العالم.

نعبث نحن إذا راودنا أمل: مجرد أمل، في أي نظام رأسمالي.

نعبث نحن إذا راوَدَنا أمل، مجرد أمل، في تناقُضٍ يَحدُث بين الرأسماليِّين هنا أو هناك؛ فالرأسمالية الآن تعلَّمت ونضجت وعرفت قبلنا نحن معنى الوحدة وأهمية التماسُك والتكاتُف.

ولا تُصدِّقوا أن تناقضًا يقوم بين كروب وجنرال موتورز!

ولا بين سوني وجروندنج.

نحن نعيش في ظل رأسمالية شديدة الذكاء والتكيُّف والخُبْث، بارعة القُدرة في التنكُّر، قوية غنية، ليس في جعبتها أيُّ خير أو استعداد لنصرتنا.


هنداوي